

المشروع الوطني
الكتاب التاسع عشر

فَنَهْجُ السِّيَاحِ الْأَنْبِيَاءِ

تَفَاعُلُ إِرَادَةِ الْخَيْرِ وَحَضَارَةِ الْبِنَاءِ

تأليف

سماحة المرجع الديني آية الله الفقيه
السيد حسين السيد إسماعيل الصدر رحمته الله

المشروع الوطني
الكتاب التاسع عشر

منهج التسامح الإنساني

تفاعلُ إرادةِ الخيرِ وحضارةِ البناءِ

تأليف

سماحة آية الله الفقيه

السيد حسين السيد إسماعيل الصدر

- دام ظله -

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين
والصلاة والسلام على نبينا محمد
وعلى آله الطيبين الطاهرين
وأصحابه المنتجبين

مقدمة

لم يتوقف سماحة المرجع الديني آية الله الفقيه السيد حسين السيد إسماعيل الصدر (دام ظلّه)، على حدود تأليف الموسوعات والبحوث والإصدارات المتخصصة في الجانب الديني فحسب، وإنما امتدت اهتمامات سماحته لمعالجة القضايا الاجتماعية المعاصرة، التي لها مساس مباشر، بحياة وتطلعات الأجيال الناشئة التي تمثل رصيد الأمة وكلّ الشعوب وثمره مستقبلها، فكرس سماحة المرجع الصدر (دامت بركاته)، جهوده الفكرية والثقافية لتوجيه الشرائح الاجتماعية الناضجة أينما كانت، متخطياً سماحته حدود المكان والجغرافيا، لتشمل أنشطته الإصلاحية، كل إنسان يطمح لبناء حياة إنسانية مستقرة.

ولتحقيق هذا المنجز الحضاري المعاصر وتفعيله على أرض الواقع العملي، أسس سماحة المرجع الصدر (دامت إفاضاته)، مشروعه الثقافي الرائد، الذي يحمل عنوان (المشروع الوطني)، ليصبح القناة الفكرية والثقافية، التي من خلالها يخاطب سماحته، كافة الشرائح الاجتماعية في مختلف الشعوب التي تتطلع لحياة يسودها التعاون والتسامح والسلام.

وكان من ثمار (المشروع الوطني) إصدار المؤلفات التالية:

- ١- كتاب السلام.. مفاهيم وقيم.
- ٢- كتاب السلام.. من منظور تطبيقي.
- ٣- كتاب السلام.. في مدرسة الإسلام.
- ٤- كتاب الوطن.. أرضٌ وحضارةٌ تجمَعنا.
- ٥- كتاب الوطن.. حاضرنا ومستقبلنا.
- ٦- كتاب الوطنية.. منهج التكامل بين الإنسان والوطن
- ٧- كتاب الوطنية.. حدَاثة المفاهيم وأصالة القيم.
- ٨- كتاب الوطنيَّة.. العمل من أجل بناء المواطن والوطن.
- ٩- كتاب الوطنية.. فكر.. ثقافة.. تطبيق.
- ١٠- كتاب الوطنية.. أصالة الماضي، وعمق الحاضر، وامتداد المستقبل.
- ١١- كتاب ممارسة الوطنية.. بين حق المواطن وحق الوطن.
- ١٢- كتاب ممارسة الوطنية.. بين الواقع والطموح.
- ١٣- كتاب مُمارَسَةُ الوَطَنِيَّة.. شَرَكَةٌ إنسانيَّةٌ لبناء الوطن.
- ١٤- كتاب مُمارَسَةُ الوَطَنِيَّة.. بِالصَّبْرِ تُدْرِكُ الأَهْدَافُ.
- ١٥- مُمارَسَةُ الوَطَنِيَّة.. إيمانٌ وَعَمَلٌ.
- ١٦- مُمارَسَةُ الوَطَنِيَّة.. تجسيدٌ لقيمِ الخَيْرِ والحَضَارَةِ.
- ١٧- مُمارَسَةُ الوَطَنِيَّة.. ضَمَانٌ لحاضرِ الأُمَّةِ ومُستقبلها.
- ١٨- منهجُ التسامحِ الإنساني.. معالمٌ جَدِيدَةٌ لرؤْيَةٍ حضاريَّةٍ مُعاصِرَةٍ.

وظلَّت الجهود المثابرة لسَمَاحَةِ الْمَرْجِعِ الصِّدْرِ (دَامَتْ بَرَكَاتُهُ) تُوَاصِلِ الْعَطَاءَ، فَأَلَّفَ سَمَاحَتَهُ الْكِتَابَ التَّاسِعَ عَشَرَ مِنْ سَلْسَلَةِ كُتُبِ (المشروع الوطني) والذي يحمل عنوان: (مَنَهَجُ التَّسَامُحِ الْإِنْسَانِيِّ.. تَفَاعُلُ إِرَادَةِ الْخَيْرِ وَحَضَارَةِ الْبِنَاءِ).

ويعون اللهُ ﷻ، سيُواصل سَمَاحَةُ الْمَرْجِعِ الصِّدْرِ (مُدَّ ظِلُّهُ)، جهوده لإثراء البنية الثقافية وتطويرها، من خلال تقديم المزيد من الأطروحات الفكرية والمعرفية، لأبناء الشعوب والمجتمعات المختلفة.

والله تعالى من وراء القصد.

الفصل الأوّل

ويتكوّن من أربعة مباحث:

المبحث الأول:

كيف نتعايش مع الآخرين؟...

المبحث الثاني:

وأحسن إلى من أساء إليك

المبحث الثالث:

مبحث تفسيري

المبحث الرابع:

مبحث في أحاديث المعصومين (عليهم السلام)

الفصل الأول

المبحث الأول

كَيْفَ نَتَعَايَشُ مَعَ الْآخِرِينَ؟...

كَيْفَ نَتَعَايَشُ مَعَ الْآخَرِينَ؟...

من أهمِّ وصايا الإسلام والشريعة الإسلامية: هو الاهتمام بالناس وحسن معاملتهم وتحمل أذاهم، والاختلاط بهم وزيارتهم ومُداراتهم والسؤال عن أحوالهم ونشر الألفة والمحبة بينهم، قال رسول الله ﷺ:-

﴿مُدَارَاةُ النَّاسِ نِصْفُ الْإِيمَانِ﴾^(١)

وقال (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ):-

﴿أَمَرَنِي رَبِّي بِمُدَارَاةِ النَّاسِ كَمَا أَمَرَنِي بِأَدَاءِ الْفَرَائِضِ﴾^(٢)

وقال (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ):-

﴿رَأْسُ الْعَقْلِ بَعْدَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ ﷻ التَّحَبُّبُ إِلَى

النَّاسِ﴾^(٣)

وقال (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ):-

﴿أَسْعَدُ النَّاسِ مَنْ خَالَطَ كِرَامَ النَّاسِ﴾^(٤)

وقال (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ):-

﴿احْتَمِلِ الْأَدَى عَمَّنْ هُوَ أَكْبَرُ مِنْكَ وَأَصْغَرُ مِنْكَ، وَخَيْرُ

مِنْكَ وَشَرُّ مِنْكَ، فَإِنَّكَ إِنْ كُنْتَ كَذَلِكَ تَلْقَى اللَّهَ ﷻ بِبَاهِي

بِكَ الْمَلَائِكَةِ﴾^(٥)

(١) الوسائل/ج٨.

(٢) البحار/ج٧١.

(٣) البحار/ج٧٣.

وقال رسول الله ﷺ:-

﴿أَعْقَلُ النَّاسِ أَشَدُّهُمْ مُدَارَاةَ لِلنَّاسِ﴾^(١)

عن أمير المؤمنين الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام:-

﴿إِنَّكُمْ لَنْ تَسْفُوا النَّاسَ بِأَمْوَالِكُمْ فَسَفَوْهُمْ بِطَلَاقَةِ الْوَجْهِ
وَحَسَنِ الْقَاءِ﴾^(٢)

وقال الإمام زين العابدين عليّ بن الحسين عليه السلام لأحد

أصحابه:-

﴿احْفَظْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ، تَمَلِّكْ بِهِ إِخْوَانَكَ﴾^(٣)

ثم قال (عليه السلام):-

﴿أَمَّا، عَلَيْكَ أَنْ تَجْعَلَ الْمُسْلِمِينَ مِنْكَ بِمَنْزِلَةِ أَهْلِ بَيْتِكَ
فَتَجْعَلَ كَبِيرَهُمْ مِنْكَ بِمَنْزِلَةِ وَالِدِكَ وَتَجْعَلَ صَغِيرَهُمْ مِنْكَ
بِمَنْزِلَةِ وَلَدِكَ، وَتَجْعَلَ تَرْبِكَ (أَي: مَنْ وُلِدَ مَعَكَ) بِمَنْزِلَةِ
أَخِيكَ، فَأَيُّ هَؤُلَاءِ تُحِبُّ أَنْ تَظْلِمَ؟ ... وَأَيُّ هَؤُلَاءِ تُحِبُّ أَنْ
تَدْعُو عَلَيْهِ﴾^(٤)

محيط الأسرة

محيط الأسرة الإيجابي هو طبيعة السلوكيات والعلاقات التي يسود فيها الحبُّ والاحترام، والتعاون والتفاهم والإيثار، والنفقة والصراف المالي، والنظام، والعناية بالشخصية، والحرص على الوقت، والجدّ.

(١) البحار/ج ٧٢.

(٢) البحار/ج ٧١.

أما محيط الأسرة السلبي، فهو مجموع العلاقات المشاكسة وعدم الانسجام والخلافات والإنانية، والكسل، والفوضى، وتضييع الوقت والثرثرة، وكثرة الجدل، والخصومة لأتفه الأسباب.

كل هذه الأوضاع يمكن أن تكون في الأسرة، الحسن منها والسيئ، ولكل سلوك أثره في تكوين الأسرة وطبيعة أفرادها، فكما يحمل الأبناء في كثير من الأحيان، الصفات الوراثية الجسدية من الآباء، فإنهم يحملون الصفات النفسية أيضاً.. كما يتلقون ويتعلمون من الأسرة سلوكها، وطبيعة الحياة فيها، فتتبع بها شخصياتهم، وأنهم يتلقون من أسرتهم العادات السيئة والحسنة.

والطريق إلى تنقية أجواء الأسرة من المشاكل والمنغصات وحالات التوتر وعدم الاستقرار، يتطلب درجة جيدة من التربية الصحيحة لذا يكون الطريق إلى تصحيح كل ذلك هو أن نساهم مساهمة فعالة في صنع السلوك الحسن، ونحول دون حصول الحالات السيئة، فإن حصول الجو السيئ في الأسرة يؤدي إلى حصول سلوك سيئ بين أفرادها جميعاً، ويحول جو السعادة إلى شقاء.

فالأسرة هي الواحة التي نستريح فيها من متاعب العمل والمشاكل التي تواجهنا في الحياة، إن وجود جو الود والمحبة والاحترام الذي يعيشه أحدنا في أسرته يُنسيه متاعب الحياة، ويُخفف عنه أزمة القلق والضجر.. في حين تبعث الأجواء المعقدة

على الكآبة والضجر والقلق، وتذهب براحة الفرد وسعادته
النفسية، وتحوّل دون تقدّمه في عمله ودراسته، وتؤثّر على صحّته
وسلامة تفكيره.

التعامل الصحيح مع أفراد الأسرة

الأسرة الناضجة التي تستشعر أهميّة وجودها في المجتمع تُشكّل الركيزة الأساسيّة في عملية بناء وتطوير الوسط الاجتماعي، فكلّما كانت الأسرة ناضجة ثقافياً وسلوكياً يكون المجتمع أكثر نضجاً وأكثر تكاتفاً وأكثر وعياً وأكثر تطوراً عمّا لو كانت الأسرة في المجتمع متفكّكة وفاقدة لحيويتها الاجتماعية ودورها في المشاركة المجتمعية.

لذا بحثنا في موضوع فاعلية الأسرة ونضجها الاجتماعي، فوضعنا الأسس الصحيحة لبناء العلاقات الأسرية السليمة والتي تبدأ من موضوع التعامل الصحيح بين أفراد الأسرة والذي يشمل:

١- كيف أتعامل مع والدي؟...

٢- التفاهم وحلّ المشاكل الأسرية.

٣- العلاقة بالإخوة.

٤- النظام في الأسرة.

٥- علاقة الأسرة بالآخرين.

١- كيف أتعامل.. مع والدي؟...

كلّ ما في الوجود، الذرّة والكواكب والنبات وظواهر الطبيعة

تسير وفق قانون ونظام، ومثلها الحياة البشرية، فهي لا يمكن أن تسير بشكل طبيعي وسليم ما لم يكن هناك قانون ونظام، فكلُّ شيء في مجتمعنا بحاجةٍ إلى نظام، المؤسسات والشركات ودوائر الدولة والمنظمات... إلخ.

والأسرة نظام اجتماعي أساسي في المجتمع، فهي تحتاج إلى قانون يُنظّم الحياة فيها والعلاقات بين أفرادها، وهذا ما فعلته الشريعة الإسلامية، فحدّدت الحقوق والواجبات، وكما نعرف فإنّ من نظام الدوائر أن تكون لها إدارة ومدير يديرها ويُطبّق القانون فيها، وكذلك الأسرة تحتاج إلى نظام يحفظ كيانها ووجودها.

وطبيعة الحياة في الأسرة تجعل من الأب مدير للأسرة ومسؤولاً عنها، وشاء الله ﷻ ذلك، فجعل للأب الولاية على أبنائه الصغار غير البالغين، وكفّفه بالنفقة عليهم وتربيتهم، كما كفّفه بالنفقة على زوجته وتحمل مسؤوليات الأسرة، لذا فمسؤولية الأب تكون أكبر من مسؤوليات الآخرين في الأسرة، ولذا أيضاً أمرَ الله ﷻ الأبناء باحترام الوالدين وبطاعتهما، وما زالا يُوجّهان الأبناء لحفظ مصالحهم.

فالأب يشعر باهتمام كبيرٍ وحرصٍ شديدٍ على أبنائه، ويسعى بكلّ جهده لتحقيق مصالحهم، فهو يريد أن يراهم متفوّقين في وضعهم الدراسي، ويريد أن يسمعَ عنهم السّمة الطيّبة بين الناس، ويريد أن يراهم مُجِدِّين في العمل، ويريد أن يراهم بعيدين عن

المشاكل التي تجلب له ولهم الأذى والسُّمعة السيئة، وتحمّله وتحملهم التّبعات والخسائر ونقد الناس وعداوتهم.

فالأب يشعر بكل إحساسه ووجدانه أنّ أبنائه يُمثّلون وجوده وشخصيته وهم مشروع حياته، وقد بذل من الجهد والمال والتعب والعناء ما لا يستطيع الأبناء تعويضه، وما لا يستطيع هو استرجاعه، لذلك يشعر بالألم والإحباط عندما يرى أبنائه قد فشلوا في حياتهم أو تحوّلوا إلى أشخاص سيئين في المجتمع يجلبون له ولأمّهم ولأُسرتهم ولوطنهم الأذى والسُّمعة السيئة.

بينما يشعر بالسرور والارتياح والإحساس بالنجاح في حياته عندما يرى أبنائه ذكوراً وإناثاً قد حقّقوا تفوقاً في حياتهم وهم في وضع اجتماعي محترم، يُوفّرون له السُّمعة الطيّبة والراحة والوقت بسبب سلوكهم الجيّد في دراستهم، في علاقتهم مع أصدقائهم، في علاقاتهم الوديّة فيما بينهم، كإخوة متحابّين متعاونين.

لذا نجده يتأذى ويشعر بالألم ويحاسب أبنائه عندما يراهم قد ارتكبوا سلوكاً سيئاً أو يُحدِثون مشاكل وحالات ازعاج في داخل البيت، أو فاشلين في دراستهم، أو يُصاحبون أصدقاء السوء ويتعوّدون العادات السيئة، كالتبذير والتدخين واللعو، أو يُطلقون الكلمات البذيئة والجارحة للآخرين.

إنّ السلوك السيئ يكشف عن سقوط الشخصية، ويصوّر للآخرين أنّ هذا الإنسان السيئ قد نشأ في أسرة سيئة، فتنعكس

آثارها المُخجِلة على الأبوين.

تلك هي مشاعر الأب وأحاسيسه تجاه أبنائه، قد لا يفهمها الأبناء، فتحدث المشاكل وتسوء العلاقة أحياناً بين الأبناء وآبائهم، لذا فإنَّ فهم الأبناء لمشاعر الآباء والأمَّهات تجاههم يحلُّ كثيراً من المشاكل، ويكون روح التفاهم، ويُعمِّق المحبَّة، ويجعل الأبناء يتفهَّمون غضب الآباء والأمَّهات من هذه الأعمال السيِّئة، ويحرصون على احترام مشاعر والديهم.

إنَّ بناء الأسرة السعيدة هو بناء أخلاقي ومادي معاً، وأنَّ السعادة تتحقَّق في القضايا الأخلاقية قبل المادية.. إنَّ هناك أسساً للعلاقة السليمة بين الأبناء والآباء والأمَّهات التي تتضمَّن السعادة ومرضاة الله على الجميع.

إنَّ حاجة أفراد الأسرة، الأبناء والإخوة والآباء إلى الحُبِّ والاحترام المتبادل كحاجة النبات إلى ضوء الشمس، وبالحُبِّ والاحترام جاءت الرسالة الإسلامية وبنَّت الحياة على أساسها، فشخصية الإنسان تتزعزع وتنمو وتتكامل في ظلِّ الحُبِّ والاحترام، لكن تحت كابوس الكراهية والإهانة تُقتل الشخصية وتذهب قيمة الفرد وتموت مشاعره النبيلة.

لذا نجد الرسول الأكرم ﷺ يوضِّح أنَّ حقيقة الإسلام

هي الحُبَّ جاء ذلك في قوله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ): -

﴿وَهَلِ الدِّينُ إِلَّا الحُبُّ﴾

وانطلاقاً من هذا الأساس، فقد حثَّ الإسلام المجيد الآباءَ على حُبِّ الأبناء والعناية بهم، وحثَّ الأبناء على حُبِّ الآباء والبرِّ بهم والإحسان إليهم.

والقرآن الكريم يُؤكِّد على كرامة الإنسان وحقه في احترام شخصيته بقوله:-

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ
وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا
تَفْضِيلًا﴾^(١)

ويدعو الأبناء إلى حُبِّ الآباء واحترامهم بقوله:-

﴿....فَلَا تَقُلْ لَهُمَا آفًا وَلَا تَنْهَرْهُمَا....﴾^(٢)

﴿....وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾^(٣)

﴿....وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا....﴾^(٤)

وجاء في حديث آخر الحثُّ على حُبِّ الأبناء لآبائهم واعتبار

هذا الحُبِّ عبادة، قال (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ):-

﴿نَظَرُ الْوَالِدِ إِلَى وَالِدَيْهِ حُبًّا لَهُمَا عِبَادَةٌ﴾^(٥)

وجاء في بيان الرسول الكريم مُحَمَّدٌ ﷺ قوله:-

﴿إِنَّ اللَّهَ لَيَرْحَمُ الْعَبْدَ لَشِدَّةِ حُبِّهِ لَوْلَاهُ﴾^(٦)

(١) سورة الإسراء/آية/٧٠.

(٢) سورة الإسراء/آية/٢٣.

(٣) سورة الإسراء/آية/٢٤.

(٤) سورة لقمان/آية/١٥.

(٥) الكليني/الأصول في الكافي.

(٦) الكليني/الأصول في الكافي/ص ٥٠.

إنَّ الأبناء يستطيعون أن يتعاملوا بشكل سليم مع آبائهم إذا فهموا فضل الأبوين في التنشئة والتربية، ومَنح الحبِّ والإخلاص لهم.

إنَّ القرآن الكريم يشرح هذه الحقيقة للإنسان عندما يؤسِّس العلاقة على أساس الاعتراف بالفضل، يوضِّح ذلك بقوله (تعالى): -
﴿... أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾^(١)

وشكر المُحسن والاعتراف بفضله وردَّ الجميل إليه صفة أخلاقية رفيعة يثبتها القرآن بقوله:-

﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾^(٢)

وعندما تتحرك مشاعر الابن ووجدانه على أساس هذه القاعدة الأخلاقية (مقابلة الإحسان بالإحسان) يشعر الأبناء بأنهم مدينون للآباء حتى فيما يتضابقون منه من نصائح وإرشادات ومحاسبة، أو انفعال وغضب لأجل الأبناء، فإنَّ مبعث ذلك في نفس الأبوين هو الحبُّ والحرص، وليس المقصود منه عدم احترام شخصية الابن أو مصادرة حرِّيته أو المنِّ عليه.

فإنَّ الأب يُؤدِّي واجبه مسروراً تجاه أبنائه، وإن فعلى الأبناء أن يُؤدُّوا الواجب مسرورين تجاه آبائهم.

وكما تقوم العلاقة بين الأبناء والآباء على أُسس الحبِّ والاحترام، تقوم أيضاً على أُسس مادية أيضاً، فالأبناء يعتمدون

(١) سورة لقمان/آية/١٤.

(٢) سورة الرحمن/آية/٦٠.

على آباءهم في حياتهم المادية حتى إكمال دراستهم، أو دخولهم ميدان العمل، بعد القدرة على ممارسة الأعمال، وخلال هذه الفترة يشعر الأبناء بالارتباط النفسي والمادي بالآباء.

وكثيراً ما يحدث توتر في العلاقات بسبب المشاكل المادية بسبب الشحّ والمنّ الذي يصدر من بعض الآباء، أو بسبب التمييز وعدم تقدير ظروف الآباء المادية من قبل الأبناء، أو بسبب الاتكالية واستمرار الاعتماد على الآباء مادياً حتى مع القدرة على العمل.

ومسؤولية حلّ مثل هذه المشاكل تقع على عاتق الطرفين، فالابن مسؤول عن تقدير ظروف والديه المادية، والأبوان مسؤولان عن التعامل المادي والأدبي مع الأبناء بالإحسان والمعروف، والتوجيه البناء، والابتعاد عن عبارات الإساءة وجرح المشاعر.

إنّ الإحساس باستقلال شخصية الابن عن أبويه حق طبيعي للأبناء، فالإنسان تكتمل شخصيته وتنضج في سنّ البلوغ، فيصبح مكلفاً شرعاً، وبالتكليف تستقلّ شخصيته عن والديه، ولكن تبقى شخصية الابن بحاجة إلى الإرشاد والتجربة والنصح والتوجيه من قبل الوالدين، حتى تكتمل معلومات الأبناء وخبراتهم الذاتية، كما يبقى الأبناء في كثير من الأحيان بحاجة إلى الرعاية المادية والاجتماعية التي يُقدّمها لهم الأبوان حتى يستقلّوا عند توفير حاجاتهم المادية.

إنَّ حُسْنَ التصرفِ الماديِّ من الأبناء يدلُّ على نُضجِ الشخصية، وسلامةِ الشعورِ النفسي، واحترامِ جهودِ الأبوين.. والأب ليس مسؤولاً من الناحية الشرعية عن النفقة المادية على الأبناء بعد سنِّ البلوغ، ولكن مسؤوليته الأخلاقية والأدبية تبقى سارية المفعول بعد بلوغ الأبناء سنِّ الرُّشد، ويبقى الارتباط العاطفي والوجداني والإحسان إلى الأبوين وحبهما للأبناء وحرصهما على سعادتهما.

والعلاقة مع الأبوين علاقة وجدانية وأخلاقية وعبادية ومسؤولية أمام الله والوجدان والمجتمع والقيم الإنسانية. ولكلِّ من الأبناء (الذكور والإناث) حقوق على آبائهم، كما على الآباء حقوق على أبنائهم، ويزداد حقُّ الأبوين على الأبناء أهميَّة عندما يكبران أو يعجزان عن العمل، فيكون القيام بشؤونهما الشخصية من مسؤولية الأبناء (الذكور والإناث)، وفي هذه الحالة تزداد أهميَّة البرِّ والإحسان بالأبوين.

إنَّ الصوت الهادئ وكلمة الاحترام، والابتسامة الودية عند الحديث مع الأبوين، إنَّ كلَّ تلك المواقف تجعل منك شخصية تستحقُّ الاحترام ومرضاة الله ﷻ.. وليس من خلق الإنسان الذي يحترم نفسه، ويتَّصف بالخلق الرفيع أن يرفع صوته بوجه والديه، أو يُطلق عبارات الانفعال والغضب عليهما، ويُسيء أدب الحوار والتفاهم معهما.

﴿... فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٍ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا

كَرِيمًا﴾^(١)

وليعلم الجميع أن الأبناء مهما وهبوا لآبائهم من مشاعر الحب والاحترام، فإن قلب الأبوين أوسع حباً وأكثر حناناً منهم.

٢- التفاهم وحل المشاكل الأسرية

الأسرة كما هي مستودع الحب والتعاون، فهي مؤسسة للتربية والتعليم، وحل المشاكل التي تحدث، أو لدراسة الآراء والمقترحات التي يقترحها الأبناء، فالابن لديه أفكار واقتراحات تخص دراسته أو عمله أو سفره أو علاقاته بأصدقائه وأقاربه... إلخ، يجب احترامها إذا كانت صحيحة. وتتولد في نفسه مشاعر وتصورات، ومن حقه على الأبوين والإخوة الآخرين أن يفتحوا قلوبهم وعقولهم لسماع ما يدور في نفسه والإصغاء إليه.

ومن حق الابن أن يعرض ذلك على والديه أو بعض إخوته في الأسرة، ليستمع إلى آرائهم وتقييمهم لأفكاره واقتراحاته، ووجهة نظره، ومشاركتهم له في حل المشاكل، أو تحديد الموقف السليم في تلك القضية التي تخصه شخصياً، أو تتعلق بالأسرة، أو بإخوانه، أو بعلاقته بالآخرين، أو ربما يعرض الموضوع على أحد الوالدين أو الإخوة كمشكلة لحلها وعلاجها.

(١) سورة الإسراء/آية/٢٣.

وتلك ظاهرة صحيّة في الأسرة أن يتحاور أفرادها ويُفكّروا في القضايا والمشاكل التي تهمُّ أحد أفرادها، لاسيّما الأبناء. وهذا الأسلوب يُعزِّز شخصية الأبناء، كما أنّ الاهتمام بآرائهم ومشاكلهم ومشاركتهم بصنْع القرار المُتعلّق بمسئولتهم أو بسلوكلهم، أو بالمشاكل التي تُواجههم يُعتبر مؤشراً إيجابياً. وعلى الآباء احترام أبنائهم، وفسح المجال أمامهم لإبداء التوصية والإرشاد والمشاركة في الرأي، أو الإعانة بالمال والجهد من أجل تنفيذ المقترحات السليمة، أو حلّ المشاكل التي يُواجهها أحد الأبناء.

ويجب الانتباه أنّ للحوار والمناقشة آداب خاصّة، والالتزام بها يُعبّر عن سلامة الشخصية وقوتها، وعند مراعاة تلك الآداب يستطيع الجميع أن يتفاهموا ويصلوا إلى نتائج صحيحة ومُرضية. وعندما يبرز الجدل والإصرار على الرأي وإن كان خاطئاً، أو يظهر الغضب والانفعال في الحوار، فعندئذٍ لا يمكن التفاهم أو التوصل إلى حلٍّ ناجح أو الاقتناع بالرأي المعروض للمناقشة.

فالتفاهم يحتاج إلى توضيح القضية بشكلٍ جيدٍ والإصغاء إلى آراء الآخرين والاستماع إليهم والقبول بالرأي الآخر إذا كان صحيحاً، أو التنازل عن الرأي لتحقيق المصلحة الأفضل، وعندما يتوفّر الجوُّ السليم للتفاهم تُحلّ المشاكل لاحقاً أو عندما يتّضح ما هو صحيح وأفضل وما هو ضارٌّ وسيئٌ ويجب تركه والابتعاد عنه.

٣- العلاقة بالإخوة

إنَّ رابطة الأخوة بين الأبناء تقوم على أساس العلاقة النسبية والعقدية، وعلاقة العيش في ظلال الأبوين في بيت واحد.

وبذا، فهي رابطة قويّة متينة، وتعميقها وترسيخها دليل على تفهّم الإخوان لمعنى الأخوة، ودليل على رُقيّ وضعهم الأخلاقي.

والإخوة في الأسرة يعيشون متفاوتين في السنّ والجنس (ذكوراً وإناثاً)، وفي المستوى الثقافي والفكري، وفي الحالات النفسية والصحية والميول والمؤهلات الذاتية.

والعيش في الأسرة يتطلّب منهم جميعاً أن يكونوا منسجمين، إنّ الانسجام يتحقّق في وجود الحبّ والإيثار، والتحيّة والهدية، والاحترام المتبادل، والتعاون، وتناول الطعام في مأدبة مشتركة، والتفاهم من خلال الأحاديث الودية، والعتو والتسامح في حال حدوث المشاكل بينهم، والعمل على حلّها عن طريق التفاهم.

إنّ مقدّمة الأعمال التي تحقّق الحبّ والانسجام في العلاقة اليومية هي التحية، فالتحية هي مفتاح القلوب، ذلك لأنّها تعبّر عن الحبّ والاحترام والعلاقة الودية، وهي تزيل ما في النفوس من غموض أو أذى وعدم الرضا.

إنّ إشاعة التحية بين أفراد الأسرة تُشيع المودة والاحترام، ولأهميّة التحية في العلاقات البشرية نجد الرسول ﷺ يحثنا على إنشاء السلام وأداء التحية، لأنّها الطريق إلى القلوب والكلمة التي

تزرع الحُبَّ في النفس.. قال الرسول الكريم ﷺ:-

﴿ لَا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تَحَابُّوا، وَلَا تَحَابُّوا حَتَّى تَتُؤْمِنُوا، أَوْ لَا أَذَلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابِبْتُمْ؟...
أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ ﴾

وَيُعَلِّمُنَا الرَّسُولَ ﷺ آدَابَ التَّحِيَّةِ بِقَوْلِهِ:-

﴿ خَيْرُكُمْ مَنْ يَبْدَأُ صَاحِبَهُ بِالسَّلَامِ ﴾

ومأدبة الطعام الواحدة التي يجتمع حولها الوالدان والإخوة، إنما هي مائدة ومشاركة فعلية في الحياة، إنهم يتناولون الطعام، ويتبادلون الأحاديث الودئية من حول المائدة.. بل، ويشاركون في إعدادها برحابة صدر وسرور، إنها ليست مشاركة في تناول الطعام فحسب، بل ومشاركة في العواطف والمشاعر.

إنَّ التعاون بين الإخوة في الأسرة عنصر أساس من العناصر التي تُوفِّر السعادة وجوَّ الانسجام في الأسرة، وتجلب بركة الرحمن للجميع.

إنَّ بعض الإخوة قد يكون متفوقاً في دراسته أو متقدماً على أخته أو أخيه في هذا المجال، فمن حقِّ الأخ على أخيه أن يساعده على تعلُّم بعض الدروس أو يُعلِّمه خبرةً أو فناً كالخطِّ والرسم أو الخياطة واستخدام الكمبيوتر... الخ، أو يرشده إلى تجاوز المشاكل والتغلب على الصعوبات.

إنَّ ذلك يساعد الأخ على شقِّ طريقه في الحياة، ويجعله مستعداً لأن يُقدِّم لك العون والمساعدة في حالة أخرى.

وقد يكون أحد الإخوة قد توفرت له فرص العمل والحصول على دخل مناسب ولم يزل أخوه أو أخته بحاجة إلى مساعدته المالية.

فمن حق الأخوة ومن الإحسان الذي يُحبّه الله ﷻ أن يقوم الأخ صاحب العمل بمساعدة إخوانه وأخواته، فيخفف عنهم وعن أبويه تكاليف الحياة ويشعر إخوانه بالإحسان والمحبة ويجعلهم يفكرون برد الجميل والإحسان إليه.

إن الحياة في داخل الأسرة هي عبارة عن حياة محبة وتعاون وإيثار، ويتحقق ذلك بالكلمة والمشاعر الطيبة، وبالمال، وبالتعاون في المجالات الأخرى.

ومن وسائل تجنب المشاكل هي الابتعاد عن إثارة الآخر أو إزعاجه، لاسيما إذا كان في وضع نفسي أو عصبي متوتر، بسبب مشكلة يعاني منها.

إن بعض أبناء الأسرة قد يكون عصبياً، أو حساساً، ووضعه في الأسرة يثير المشاكل مع بعض إخوانه، أو أخواته، أو قد يتكون عنده شعور غير صحي تجاههم، وقد يُطلق كلمات جارحة، أو يقوم بعمل مثير لغضب الآخرين، وقد يرد الأخ على أخيه بالمثل، فعندئذ تتوتر العلاقة في الأسرة، وتتعدّد الأجواء وتتطور المشكلة.

وعندما تحدث مثل هذه الحالات، ينبغي تقدير الحالة النفسية وظروف الأخ المنفعل أو الأخت المنفعلة، وأن يُقابل الغضب

والانفعال بهدوء ودونما مواجهة، ثم نعود بعد فترة ساعات، أو في اليوم التالي، فنبحث مع الأخ أو الأخت المشكلة بصورة مباشرة، أو من خلال أحد الأبوين أو الإخوة أو الأصدقاء ونعمل على حلها. إنَّ العفو والتسامح والسيطرة على النفس عند الغضب موقف أخلاقي يكشف عن قوَّة الشخصية وسلامة النفس من الحقد والروح العدوانية.

لقد امتدح القرآن الكريم الكاظمين الغيظ والعافين عن الناس، واعتبر ذلك إحساناً منهم وعظماً على الآخرين، قال (تعالى):-

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَآظِمِينَ الْغَيْظَ
وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾^(١)

كما أنَّ تبادل الهدايا بين أفراد الأسرة تجلب المحبة وتوطد العلاقة، فالهدية تُعبِّر عن شعورك تجاه الآخر، كما أنَّها تُعبِّر عن الاهتمام والتكريم والرغبة في الودِّ تجاه الآخر، لذا نجد الرسول ﷺ يقول:-

﴿تَهَادُوا تَحَابُّوا﴾

فلو كانت هديتك: كتاباً مناسباً أو محفظة صور أو ساعة... الخ لأختك أو أخيك، فإنها تترك أثرها النفسي فيه، والإنسان خلق ناطقاً، وبالناطق يُعبِّر عن أحاسيسه ومشاعره، وللحديث العائلي أثره الكبير في نفوس أبناء العائلة.. فأفراد العائلة

(١) سورة آل عمران/آية/١٣٤.

عندما يجتمعون ويتبادلون الأحاديث الودية والمفاهيم الثقافية أو أخبار المجتمع والسياسة أو يتداولون شؤون الأسرة أو أخبار العلم والاكتشافات أو الشؤون الشخصية والعائلية التي تتعلق بأقربائهم وذويهم، كلُّ ذلك له الأثر الإيجابي في بناء علاقة أُسرية جيّدة.

إنَّ تبادل الأحاديث يزيد في ثقافة الفرد وتعوده على حياة الانفتاح والاهتمام بشؤون المجتمع والثقافة، وتبعده عن الكآبة والإنطواء، وتكوّن جوّاً من التفاهم وإزالة حواجز الانغلاق، والتوتر النفسي، وتوفّر حالة من الانسجام والموّدة، كما تساهم تلك الأحاديث في توحيد ثقافة العائلة وإيجاد حالة من التقارب الفكري بين أفرادها.

حاول أن تبدأ الحديث وتحدّث أنتَ مع أفراد العائلة الجالسين بشكل جماعي، أو اطرح سؤالاً عن مسألة من المسائل على أحد الجالسين (أمك أو أبيك) لتوفّر فرصة للحديث والحوار العائلي. وللحديث أصوله وآدابه، فلا يصحُّ أن تقاطع المتحدّث حتّى يكمل حديثه، ولا تحتكر الحديث وحدك، وتأكد من نقل الأخبار والمعلومات التي سمعتها قبل أن تتحدّث بها، فإنَّ ذلك يُعبّر عن احترامك لكلمتك وشخصيتك.

٤- النظام في الأسرة

والأسرة بنية من أهمّ البنى الاجتماعية، والحياة فيها تحتاج إلى نظام، يُنظّم دورها، وعلاقات أفرادها بعضهم ببعض، فهي كيان

نو أنشطة متعدّدة، تربوية واقتصادية وثقافية واجتماعية وإدارية....الخ.

وللنظام في الأسرة الأثر الكبير في تنظيم العيش بين أفرادها.. حيث يُؤثر النظام في سلوك أفرادها من الناحيتين الحسنة والسيئة تبعاً للنظام المتبع في الأسرة إذا كان نظاماً حسناً أو نظاماً سيئاً، ويقوم بالإشراف على الأسرة وتوجيهها وترشيدها كل من الأبوين. فكلما كانت هناك إدارة جيدة وإشراف سليم لتنظيم الحياة في الأسرة كالصرف المالي وتربية الأبناء وإرشادهم والاستفادة من الوقت، ومواعيد الاستيقاظ، والنوم، والطعام، وحلّ المشاكل...الخ.. كلما كان هناك إدارة جيّدة تستطيع إيجاد نظام جيد في الأسرة، ينعكس على حياة الأفراد ويُسير الحياة داخل الأسرة بشكل جيّد.

فوجود ميزانية مالية للأسرة (تُنظّم فيها الواردات والمصروفات حسب دخلها، بعيداً عن التبذير والتضييق والتقتير) مسألة أساسية، يتعاون أفراد الأسرة على تنفيذها والرضا بها، فتُجزأ الميزانية مثلاً حسب احتياجات العائلة للطعام والملابس والتعليم، وأدّخار جزء من الوارد للاحتياط والطوارئ....الخ.

فالتضييق في الصرف على أفراد العائلة وحرمانهم مع وجود المال الكافي خطأ يرتكب بحقهم، كما أنّ البذخ والإسراف وتبذير المال في قضايا ليست أساسية أو لا حاجة إليها، عمل يضرّ بوضع الأسرة، وربما يصل إلى حدّ التصرف المحرّم شرعاً إذا كان إسرافاً

أو تبذيراً.

ويحلُّ بنا الندم على تضييع المال عندما نشعر بالحاجة إليه، فنضطرُّ إلى الاقتراض وطلب المساعدة من الآخرين، ممَّا يجعلنا نشعر بالخجل وفضل الآخرين علينا.

وكثيراً ما يتعذَّر علينا الحصول على المطلوب، فنظِّلُ في حيرة وندم، ونقع في مشكلة أو نُضَيِّعُ فرصة من الفرص النافعة والجيدة.. والقرآن الكريم يضع لنا سياسة مالية متوازنة بقوله (تعالى) في سورة الإسراء/آية/٢٩:-

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾

فقد لا يشعر أحدنا بقيمة المال وأهميته في وقت الرخاء، ولكننا سنشعر بحاجتنا الماسة إليه بعد ضياع المال.. وعندما يقبض بعض الآباء أيديهم عن الصرف المعقول، ويحرمون أسرهم وأبناءهم من سدِّ حاجاتهم والنفقة على شؤونهم العامة، فإنهم يسيئون إلى أبنائهم ويقصرون بحقهم، ويوصف ذلك بالبخل والتقتير وتلك صفة ذميمة.

ويبقى على الأبناء في هذه الحالة أن يتفاهموا مع آبائهم بالحسنى، ويشرحوا لهم المسألة باحترام، وعندما تحدث الحاجة إلى المال ويصعب توفيره من دخل العائلة لا بدَّ من البحث عن ساعات عمل تُعْطِي النقص في الصرف المالي.

إنَّ البحث عن عمل موقف سليم يُعبّر عن ثقة الشخص بنفسه، وقدرته على إدارة شؤونه الذاتية.

وفي كل الأحوال ليس من الصحيح أن تتحوّل مشكلة العوز المالي إلى تأزّم العلاقة بين الأبناء والآباء.

ومن المسائل الأساسية في نظام الأسرة مسألة تنظيم الوقت، فكثير من الأسر لا تحسّن استغلال الوقت أو الاستفادة منه، ويلاحظ على بعض أفرادها الكسل والخمول.

ف نجد مثلاً السهر الطويل والاستمرار في النوم إلى ساعات متأخرة في النهار، أو تضييع الوقت بالثرثرة أو الإسراف في مشاهدة التلفزيون، فيتأثر بذلك (مثلاً) وضع الأبناء الدراسي أو روح الجدّ والنشاط عندهم.

إنّ وضع نظام ناجح في الأسرة يعتمد بشكل كبير على أساس الاستفادة من الوقت، كالتعوّد على النوم المبكّر، والنهوض المبكّر، واستثمار الوقت داخل الأسرة بالدراسة أو الأعمال اليدوية والفنية النافعة كالرسم والتخريم، والحياسة والتطريز، أو التدريب على استعمال بعض الأجهزة العلمية وغيرها.

وبالتعوّد على العمل والجدّ يربّى الأبناء على تلك العادة الحسنة ويكتسبوا صفة الجدّ والنشاط والعمل.

٥- علاقة الأسرة.. بالأخريين

الأسرة في وضعها الاجتماعي جزء من المجتمع، والمجتمع

بطبيعته مجموعة من الأسر والأفراد، والعلاقات الاجتماعية قضية أساسية في حياة الأسرة، فلا بد من أن تكون للأسرة علاقات مع بقية الأسر، لاسيما الأقرباء والأرحام والجيران.

فالأسرة الناجحة والصحية في سلوكها الاجتماعي هي الأسرة التي تكون لها علاقات صداقة وتعاون مع أسر أخرى، فلعمّ والخال والعمّة والخالة والأخت المتزوجة... الخ، أسر ويجب أن تكون لأسرتنا علاقات ودية وروابط وثيقة مع تلك الأسر.

إنّ التزاور والمشاركة في المناسبات السارة كالأعياد وليالي رمضان والزواج والنجاح المدرسي أو الأحزان أو عند حدوث المشاكل أو في حالات المرض هي واجب أخلاقي وموقف يُعبّر عن الطبيعة السليمة للأسرة وعمل يُحبّه الله ﷻ ويؤجر عليه.

فصلة الرّحم من أهمّ الأعمال التي ندب إليها القرآن، واعتبر التشريع الإسلامي قطع الرّحم من كبائر الذنوب، وأنّ صلة الرّحم من أفضل الأعمال، وإن كان ذلك الرّحم أو القريب قاطعاً.

وصلة الرّحم تدفع البلاء، وتوسّع الرزق، وتجلب المحبّة والتعاون، وتشعرهم بردّ الجميل، والوقوف إلى جانب الأسرة عندما تقع عليها المشاكل الحياتية، كما تدعوهم إلى مشاركتهم في أفرانها وأحزانها.. وتلك هي الحياة الاجتماعية ما هي إلاّ، محبة وتعاون ومشاركة وجدانية وفعلية في السراء والضراء.

إنّ الأسرة التي تعيش مُنكفئة على نفسها، منعزلة عن

الآخرين هي أسرة فاشلة اجتماعياً، سواء كانت تلك العزلة بسبب الغرور المالي أو الاجتماعي والتعالي على الآخرين، أو بسبب الطبيعة الانطوائية الانعزالية، تكون أسرة سلبية في المجتمع.

وكلُّ تلك الصفات صفات سيئة تُسيء إلى سُمعة الأسرة، وتُربِّي أفراداً فاشلين اجتماعياً، يفقدون احترام الآخرين وتعاونهم، وليس في المجتمع الإنساني مَنْ يستغني عن الآخرين.

وعندما تحدث مشاكل مع بعض الأسر كأسرة الأخت أو الأخ أو الأعمام أو الأخوال، فلا يصحُّ أن تواجهه بالقطيعة والعداوة، والتراشق بالكلام المؤجِّج للخلاف، بل يجب العمل على حلِّها والمصالحة بين الأسرتين عن طريق توسطُّ الأصدقاء، أو بعض أفراد الأسرة المقبولين لدى الطرفين، وممَّا يزيل الأزمة الزيارة والتسامح ونسيان أسباب المشكلة، والدعوة إلى وليمة طعام، أو سفرة عائلية مشتركة، أو إرسال الرسائل وبطاقات المعايدة والاتصال التلفوني إذا كانت بين الأسرتين مسافة بعيدة.

وإذن، فلنفهم الحياة الاجتماعية إنما هي تعارف ومحبة وتعاون، وقد صورَ القرآن ذلك بقوله:-

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾^(١)

(١) سورة الحجرات/آية/١٣.

﴿...وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَىٰ

الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ...﴾^(١)

﴿...وَأَوْلُوا الْأَرْحَامَ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ

اللَّهِ...﴾^(٢)

ويوضح الرسول الكريم محمد ﷺ أن رسالة الدين هي الحبُّ

الصادق الطهور، قال الرسول ﷺ:-

﴿وَهَلِ الدِّينُ إِلَّا النُّحْبُ﴾

وأنَّ خير الناس هو خيرهم لأهله، كما جاء في قوله

(صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ):-

﴿خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي﴾

وهكذا نفهم أنَّ الأسرة تصنع شخصية أبنائها، وأبناؤها

يُمثِّلون شخصيتها، ولا سعادة للفرد مع شقاء الحياة في داخل

الأسرة، والأسرة الطيبة تصنع شخصيات طيبة.

(١) سورة المائدة/آية/٢.

(٢) سورة الأنفال/آية/٧٥.

الفصل الأول

المبحث الثاني

وَأَحْسِنُ إِلَى مَنْ أَسَاءَ إِلَيْكَ

وَأَحْسِنِ إِلَى مَنْ أَسَاءَ إِلَيْكَ

نَتَمَنَّى دَائِمًا أَنْ نَكُونَ مِنَ التَّابِعِينَ لِمَنْهَجِ نَبِيِّنَا وَمُعَلِّمِنَا وَقِدْوَتِنَا الرَّسُولِ الْأَكْرَمِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَأَهْلِ بَيْتِهِ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ، لِأَنَّ التَّابِعِينَ لِمُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ الْمُتَجَبِّينَ دَائِمًا يَكُونُونَ هُمْ حَمَلَةَ الرِّسَالَةِ، وَدَائِمًا يَكُونُونَ شَاعِرِينَ بِالمَسْئُولِيَّةِ، دَائِمًا يَكُونُونَ مِمَّنْ يَذْكُرُونَ اللَّهَ كَثِيرًا، دَائِمًا يَكُونُونَ مِمَّنْ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقَعُودًا وَعَلَى جَنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ.

إِذَنْ، دَائِمًا هُمْ يَذْكُرُونَ اللَّهَ ﷻ بِأَلْسِنَتِهِمْ وَيَذْكُرُونَ اللَّهَ فِي قُلُوبِهِمْ وَيُسَخِّرُونَ عُقُولَهُمْ مِنْ أَجْلِ تَحْقِيقِ المَعْرِفَةِ الْأَعْمَقِ بِاللَّهِ ﷻ، وَيَسْتَمْتِرُونَ عُقُولَهُمْ وَتَفَكِيرَهُمْ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَصِلُوا إِلَى المَعْرِفَةِ الْأَقْوَى بِاللَّهِ ﷻ، مِنْ أَجْلِ أَنْ يَعِيشُوا حَالَةَ مَعْرِفَةِ اللَّهِ وَأَنْ يَكُونَ اللَّهُ ﷻ دَائِمًا فِي عُقُولِهِمْ وَفِي قُلُوبِهِمْ، وَإِذَا كَانَ اللَّهُ دَائِمًا فِي عَقْلِ الْإِنْسَانِ وَفِي قَلْبِهِ كَمَا أَرَادَ اللَّهُ ﷻ، فَسَيَكُونُ دَائِمًا هُوَ المِيزَانُ وَالمِقياسُ لِمَا يُفَكِّرُ بِهِ الْإِنْسَانُ وَلِمَا يَقُولُ وَلِمَا يَعْمَلُ.

بِمَقْدَارِ صِلَةِ الْإِنْسَانِ بِاللَّهِ سَيَتِمَكَّنُ مَنْ أَنْ يُرَبِّي نَفْسَهُ وَسَيَتِمَكَّنُ مَنْ أَنْ يَسْتَقِيمَ، سَيَتِمَكَّنُ مَنْ أَنْ يَسِيرَ بِالمَطْرِيقِ التَّكَامِلِيِّ، سَيَتِمَكَّنُ مَنْ أَنْ يَعْمَلَ مِنْ أَجْلِ صِلَاحٍ وَإِصْلَاحِ نَفْسِهِ وَمَنْ تَمَّ غَيْرُهُ.

ولهذا دائماً نحن بحاجة أن نكون من التابعين لمحمد وآل محمد، لأنهم حملة رسالة ولأنهم حملة منهج، ولأنهم جاعوا من أجل هذه الرسالة وهذا المنهج، وعملوا من أجل الإصلاح ومن أجل بيان ما للإنسان من قوى وقابليات وقدرات وإمكانيات يمكن توظيفها لخدمة الآخرين ودائماً كانوا يعملون من أجل تصحيح مسيرة الإنسان الحياتية ليسعد في الحياتين الأولى والآخرة.

فالإنسان (الذي هو ضمن المجتمع، والذي هو من الشعب ومن الأمة ومن الناس أجمعين) إن سار على فطرته، فستكون مسيرته مسيرة سليمة.. ولكن من الممكن أن تعثر هذه المسيرة نكسات، مطبات كثيرة، ولهذا دائماً نحن بحاجة إلى المصلحين، بحاجة إلى المقومين للإنسان، بحاجة إلى من يلفت الأنظار للأخطاء من أجل تصحيحها، بحاجة إلى من ينتقد نقداً بناءً، بحاجة أن نعرف الداء دائماً، حتى نستعمل له الدواء، بحاجة أن نؤكد علاقتنا مع الله بالشكل الصحيح ولا يمكن أن نؤكد علاقتنا مع الله ﷻ بالشكل الصحيح إلا إذا أكدنا صلتنا بالله ﷻ وإنسانيتنا مع الآخر.

فبمقدار ما نؤكد القيم الإنسانية فينا فإننا نتمكن أن نؤكد عبوديتنا لله ﷻ، لأن القيم الإنسانية إن أردنا أن نؤكدها في أنفسنا، يعني أننا التفتنا إلى أنفسنا وربيناها وعرفنا ما فيها وما بها من إيجابيات وسلبيات، ودائماً معرفة الإنسان لنفسه، هي مقدمة لمعرفته بربه، لأن هذه المعرفة تُشكل حالة مُتقدّمة مع نضج وعي

الإنسان، وتفتح بصيرته..

إذن، دائماً الجانب الإنساني لا بدَّ أن يتأكَّد حتَّى نتمكَّن أن نصل إلى جانب إيماني سليم.. أمَّا إذا ابتعدنا عن الجانب الإنساني والمفاهيم الإنسانية فإننا سنبتعد بالتأكيد عن المدرسة الإيمانية والمفهوم الإيماني، وما يتطلبه الإيمان من احترام الإنسان. إذن، لا بدَّ للإنسان أن يلتفت إلى إنسانيته ويعرف نفسه، وهذا ممَّا سيؤهلُه إلى دخول الحظيرة المقدَّسة وهي حظيرة الإيمان والعلاقة مع الله ﷻ.

وإذا دخلَ إلى الحظيرة المقدَّسة في علاقته مع الله، فإنَّه أوَّل ما يجد في دروسها، ضمن منهجها هو موضوع الإنسان وكرامة الإنسان وحقوق الإنسان وما يجب عليه، أو فننقل ما له وما عليه، أي ما له من حقوق وما عليه من واجبات، ودائماً هذه الحقوق والواجبات وُجِدَتْ لبناء نفسه، لبنائه بناءً إنسانياً سليماً ولبناء المجتمع أيضاً.

فالإنسان وخصوصاً ضمن المنهج الإيماني والمنهج الإنساني لا يُنظَر إليه كفرد فقط، ولكن يُنظَر إليه كجزء من جسم، مرة يكون هذا الجسم جسم إيماني ومرة يكون هذا الجسم جسم إنساني، ويُنظَر إليه كحلقة مرتبطة ببقية الحلقات.

إذن، عندما يُوكَّد الإنسان في نفسه الجانب الإنساني ويدخل إلى الحظيرة المقدَّسة في تربية الله للفرد ومن خلاله تربيته إلى

المجتمع وإلى الأمة وإلى البشرية، فإنه سيئنتفت إلى أنه جزء لا يمكن أن يتجزأ عن بقية أجزائه التي تُشاركه في المنظومة الاجتماعية والإنسانية، ولا بدّ من التواصل الدائم والمستمر بين الإنسان وأخيه الإنسان الآخر، وإذا كان هناك أيُّ نقص أو خلل في حلقات التواصل، لا بدّ من تصحيحه.

ودائماً هناك أمران رئيسيان يُؤكّد عليهما المنهج الإيماني ضمن المدرسة الإنسانية وهما:

أولاً: أن تتعامل مع الآخرين بخُلقك وتربيتك وليس بخُلق وتربية الآخر.

ثانياً: أن تحاول أن تُعطي للآخر عُدراً.

أمّا الأول وهو (أن تتعامل مع الآخرين بخُلقك وتربيتك وليس بخُلق وتربية الآخر)، هذا من الدروس العملية في التعامل مع الآخر، وهذا ما يعنيه الإمام الباقر والإمام الصادق (عليهما السّلام): -

﴿كُونُوا لَنَا دُعَاةً صَامِتِينَ﴾

وهذا ما يعنيه الإمام أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) عندما قال لأصحابه: -

﴿كُونُوا دُعَاةً لَنَا بِأَفْعَالِكُمْ وَلَيْسَ بِأَقْوَالِكُمْ﴾

وكذلك هذا ما أشار إليه الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) عندما استمع إلى نفر من أصحابه وهم يسبّون معاوية بن أبي سفيان وأصحابه، فوقف الإمام (عليه السلام) عندهم وقال لهم: -

﴿ لا تسبّوهم ولا تشتموهم ولكن قولوا هذه أعمالنا وهذه أعمالهم ﴾

إذن، نريد أن نبرهن للآخر ما لدينا من فكر ومنهج وأخلاق بعمَلنا وليس بكلامنا وقولنا.

ولهذا، التعامل الإنساني الذي هو جزء من إيمان الإنسان لا بدّ أن يكون على أساسين:

الأساس الأول: هو أن يتعامل الإنسان مع الإنسان الآخر بتربيته هو وبأخلاقه هو وليس بتربية الآخر وأخلاق الآخر.

وإذا تعامل مع الآخر بأخلاق وتربية الشخص الآخر فذلك سيكون نوع من أنواع الاستدراج، أي: سيتمكّن الآخر الذي أساء أو يُسيء أن يستدرج من يسيء إليه إلى موقف كموقفه السيئ وإلى تصرف كتصرفه السيئ.

إذن، إذا انساق الإنسان الناضج الجيد المؤمن للتخلي عن أخلاقه تحت تأثير العاطفة الجامحة المنفعلة وتعامل بالمثل مع بذاعة الإنسان المسيء، فإنه سيفقد توازنه الأخلاقي والإنساني، وكأنه إن تصرف مع الآخر بشكل سيئ، فإنه يُعطي للإنسان السيئ سؤاله ويُعطيه مبتغاه، وكأنه يُفرحه ويُسرّه، لأنه جعل من خصمه يسلك نفس سلوكه، ويتمنّج بنفس منهجه السيئ.

إنّ التعامل الإنساني بعيد عن هذا المنهج.. التعامل الإنساني المُفعم بالعلاقة مع الله والإيمان به، لا بدّ أن يكون بعيداً كلَّ البعد

عن المنهج السيِّء، إن قابلتَ الإنسان السيِّءَ بالمثل فستكون مثله، ولهذا يُسمَّى المقابلة بالمثل.

إذن دائماً المطلوب أن تتعامل مع الآخر بخُلُقك وتربيتك، أن تتعامل مع الآخر بمقدار ما تحمل من فهم للإنسانية، أن تتعامل مع الآخر بمقدار ما تتمكن أن تجسّد من إيمان، هذا أولاً.

الأساس الثاني: دائماً المطلوب من (التعامل مع الآخر) هو ما يُسمَّى بالعرف الديني: (الحَمَلُ على الصحة)، وأن تحاول أن تجد له عذراً، أي: تحاول أن ترى له تبريراً لخطئه، وهذا من أعلى درجات الفكر الإنساني، وهو أن يكون الإنسان مع نفسه، بعيداً كلَّ البعد عن التبرير وأن يكون مع نفسه واضحاً كلَّ الوضوح وأن يكون مع نفسه يعيش حالة الصّدق بكلِّ أبعادها.. ومقابل ذلك يكون مع الآخر (وخصوصاً مع مَنْ أساء أو يُسيء إليه) ملتمساً الأعذار له، وهذا هو معنى قول النبي ﷺ: -

﴿إِحْمِلْ أَخَاكَ عَلَى سَبْعِينَ مَحْمَلًا، فَإِنْ لَمْ تَجِدْ لَهُ مَحْمَلًا،

فَقُلْ: لَعَلَّ لَهُ مَحْمَلًا﴾

إذن، دائماً من أجل أن يكون التعامل مع الآخر تعاملًا سليماً وإنسانياً، عليك أن ترى تبريراً لعمله.

هناك فرق بالتأكيد بين الإساءة الشخصية والإساءة العامّة أو الفكرية، حديثنا وكلامنا الآن عن الإساءة الشخصية، فإذا صدر تصرفٌ وصدرت إساءة من الآخر.. المطلوب في المنهج الإنساني

والذي يحمل الإيمان أن تتصرف معه على ضوء هاتين القاعدتين:
أولاً: تتصرف معه بخُلُقك وتربيتك وليس بخُلُقهِ وتربيته.
وثانياً: تحاول أن تحمله على الصحة وتفتش عن تبرير
 سليم لعمله.

بالتأكيد أن التعامل مع الآخر بأخلاقك وتربيتك وأن ترى له
 عذراً وتبريراً، كل ذلك يحتاج إلى درجة عالية من تربية النفس،
 درجة عالية من عدم الالتفات إلى (الأنا) والذات.
 لأنه دائماً من يلتفت إلى (الأنا) والذات تكون أمامه المفاهيم
 والأخلاق البعيدة عن المدرسة الإنسانية والمدرسة الإيمانية،
 فالشخص الذي دائماً يلتفت إلى (الأنا) وإلى الذات، يكون ملتفتاً
 مقابل ذلك إلى مسألة الانتقام وإلى مسألة الثأر وإلى مسألة الأخذ
 بالمثل والزيادة، ودائماً يلتفت إلى تضخيم ما قام به الآخر من
 إساءة، لأنه يعود إلى ذاته ونفسه، ولا ينتبه لا إلى المنهج ولا إلى
 ظرف الآخر.

لو التفت إلى المنهج الصحيح، لرأى ضرورة أن يقوم مع
 الآخر بتربية نفسه وتقويم أخلاقه، وهذا هو المنهج.. وإذا التفت
 إلى ظرف الآخر، يمكن أن يلتفت إلى بعض المبررات وبعض
 الأعذار من الآخر.

ولهذا نرى أن المنهج الإنساني من أجل تأكيد التصرف السليم
 والابتعاد عن (الأنا) والذات نتيجة تربية الإنسان لنفسه، يكون

أساس التعامل مع الآخر، هو التسامح.

ودائماً مسألة التسامح تعني التسامي، مسألة التسامح تعني الكبر، مسألة التسامح تعني العظمة، مسألة التسامح تعني أن الإنسان يتصف بمواصفات رائعة عظيمة جميلة كبيرة كريمة.. فالتسامح لا يصدر من النفوس الصغيرة، والتسامح لا يصدر من النفوس الضعيفة، والتسامح لا يصدر من النفوس التي لم تدخل في مجال التربية الإنسانية والتربية الإيمانية.

فدائماً التسامح يدلُّ على علوِّ النفس وعلى وجود قيم، وهذه القيم ليست على المستوى النظري وإنما على المستوى العملي السلوكي.. فدائماً تربية النفس هي التي تُعطي القوة وتُعطي الثقة بالنفس التي لا تصل إلى درجة الغرور ولا إلى مرتبة من مراتب الغرور.. ودائماً نقول: الثقة بالنفس مطلوبة، ولكن الغرور أمر منبوذ.. والشعور بالعلوِّ على الآخرين أمر قبيح.. الثقة بالنفس مطلوبة ولكن التكبر حرام، إثم، معصية.

ولهذا دائماً نحن بحاجة إلى تربية أنفسنا وبحاجة أن نضع المنهج السليم في تعاملنا مع الآخر.

وباختصار نقول: أن هناك ضرورة التعامل بخلقك وتربيتك وليس بأخلاق الغير وتربيته.. هذا أولاً.

وثانياً: لا بدَّ أن تتعامل مع المسيء محاولاً أن تُعطيه التبرير لتصرفه الخاطئ معك والسيئ تجاهك.

وبهذا يمكن لنا أن ندخل إلى هذه الفقرة المباركة من منهج التسامح الإنساني الذي أراده الله ﷻ على لسان نبيه ﷺ وعلى لسان الأئمة الهداة من أهل بيته (عليهم السلام)، والذي دائماً يجرنا إلى الإنسانية العملية.

والإنسانية العملية هي التي دائماً توصلنا إلى الإيمان العملي، فالإنسان ليس فخراً له أن يصل من كان قد وصله، وكذلك ليس فخراً له أن يعطي من كان قد أعطاه، ولكن يكون فخراً له وعلواً وتربية وسمواً وتكاملاً وتأكيداً لإنسانيته وإيمانه، إذا كان قد وصل من كان قد قطعه، وأعطى من كان قد حرّمه.. هنا تظهر الإنسانية، هنا تظهر القيم الإنسانية العملية، هنا يظهر مقدار ما يحمل الإنسان من ثقافة إنسانية يتمكن من أن يترجمها على أرض الواقع أو إلى الواقع ويترجمها بمصاديق حياتية، هنا يتبين القدر الذي يحمله من إيمان يتمكن من أن يصيره إلى مفردات حياتية سلوكية في تعامله مع الآخر.

أما في حالة أن أصل من وصلني، وأن أعطي من أعطاني، فالنفس البشرية هي مجبولة على شكر المنعم!... والذي وصلني قد أنعم علي.. إذن، إن كانت نفسي غير مريضة، فلا بد أن أصله.. وكذلك من أعطاني فقد أنعم علي.. فنفسى إذا كانت غير مريضة، لا بد أن أعطيه.. ولكن تظهر سلامة النفس وعدم استجابتها للمؤثرات السلبية في حالة أن يصل الإنسان من قطعه، وأن يعطي

مَنْ حَرَمَهُ، وَهَذَا هُوَ مَا يَرِيدُهُ الْحَدِيثُ مَنَّا عِنْدَمَا يَقُولُ:-

﴿ صِلْ مَنْ قَطَعَكَ.. وَأَعْطِ مَنْ حَرَمَكَ ﴾

الغريب أَنَّ هُنَاكَ الْكَثِيرَ مِمَّنْ يَتَكَلَّمُ عَنِ الْإِنْسَانِ وَعَنِ حَقُوقِ الْإِنْسَانِ وَعَنِ حُرِيَّةِ الْإِنْسَانِ، وَلَكِنْ فِي سُلُوكِهِ هُوَ مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ إِمَّا عِدَاءً لِلْإِنْسَانِ أَوْ اسْتِخْفَافاً بِالْإِنْسَانِ أَوْ عَدَمِ التَّفَاتِهِ إِلَى كِرَامَةِ الْإِنْسَانِ وَمَكَانَتِهِ.

بِعَكْسِ مَا نَرَاهُ فِي إِسْلَامِنَا الْحَبِيبِ وَفِي قِرْآنِنَا الْعَظِيمِ وَفِي سُنَّةِ نَبِيِّنَا الْكَرِيمِ وَسِيرَةِ أَهْلِ بَيْتِهِ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ.

وَنَرَى دَائِماً التَّدْرُجَ فِي مَوْضُوعِ تَرْبِيَةِ النَّفْسِ، وَالَّذِي يَكُونُ مِنْ خِلَالِهَا تَرْبِيَةُ الْإِنْسَانِ عَلَى الْمَفَاهِيمِ الْإِنْسَانِيَّةِ الَّتِي تُؤَهِّلُهُ لِأَنْ يَكُونَ إِنْسَاناً خَلِيفَةً لِلَّهِ ﷻ، مُؤْمِناً بِاللَّهِ فِكْراً وَعَمَلاً.

فِي الْمَرْحَلَةِ الْأُولَى: هُوَ أَنْ تَصِلَ مِنْ قَطَعَكَ.

وَالْمَرْحَلَةُ الثَّانِيَّةُ الَّتِي هِيَ أَعْلَى دَرَجَةٍ: أَنْ تُعْطِيَ مَنْ حَرَمَكَ.

نَحْنُ بَيْنَنَا أَبْعَادَ كِلَا الْفَقْرَتَيْنِ، وَلَكِنْ دَائِماً الْمَفْهُومُ مِنَ الْفَقْرَةِ الْأُولَى هُوَ الْبُعْدُ الْاجْتِمَاعِي: أَنْ تَصِلَ مِنْ قَطَعَكَ، وَأَعْطِينَا بَقِيَّةَ الْوُجُوهِ، (أَنْ تُسَامِحَ وَتَتَوَاصَلَ مَعَ الشَّخْصِ الَّذِي جَافَاكَ وَابْتَعَدَ عَنْكَ).

وَالْفَقْرَةُ الثَّانِيَّةُ يُفْهَمُ مِنْهَا الْبُعْدُ الْاِقْتِسَادِي، وَكَذَلِكَ قَدْ بَيَّنَّا بَقِيَّةَ الْوُجُوهِ، (أَنْ تُبَادِرَ بِمَدِّ يَدِ الْعَوْنِ لِلشَّخْصِ الَّذِي رَفَضَ التَّعَامُلَ مَعَكَ).

وهنا في منهج التسامح الإنساني نصل إلى مرتبة أعلى، ودرجة أسمى، وكيف أن الإنسان المطلوب منه (وتحقيقاً لإنسانيته بشكل عملي) أن يكون دائماً قادراً ماسكاً زمام أموره وزمام مشاعره وزمام تصرفاته.

وهنا، تظهر تربية الإنسان لنفسه، ثقافة الإنسان، إيمان الإنسان، علاقة الإنسان مع الله، احترامه لنفسه، ثقته بنفسه، فدائماً الذي لا يحمل الثقة بنفسه يكون مهزوزاً، والشخص المهزوز يتأثر بأيِّ إساءة، ويستعظم أيِّ إساءة، ولا يتحمل أيِّ إساءة.

أما الشخص الواثق من نفسه لا يكون مهزوزاً، وإذا لم يكن مهزوزاً، فلا يُعطي للإساءة أهمية، لا بل يتعامل مع الإساءة بروح عالية ونفس تستوعب الآخرين، ولهذا نرى مثلاً: النبي ﷺ عندما كان يخرج ويقول:-

﴿قُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تَفْلِحُوا﴾

كان يُقال له كذاب وساحر، ويوصف بكلِّ الأوصاف السيئة، ولكن لم يكن ذلك يؤثر على نفسه ولم يقابل المسيئين بالمثل، بل بالعكس من ذلك، كان يقابلهم بالرحمة، وكلُّ الذي كان يقوله بعد كلِّ هذه المعاناة، هو الدعاء لهم، بقوله (عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ):-

﴿اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

ونرى الإمام أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام عندما خرجت عليه مجموعة من أصحابه واتهموه بشتّى الاتّهامات، وقالوا فيه الكثير والكثير من الأقاويل السيّئة، وأسأعوا إليه بالكثير والكثير من الإساءات، حتّى سُمّوا (أولئك) بالخوارج، وكان نتيجة ذلك أنّ مجموعة من أصحاب أمير المؤمنين أرادوا قتالهم وتأديبهم.. ولكن، فلننظر إلى تصرف الإمام أمير المؤمنين عليه السلام معهم، فمنع أيّ إساءة لهم ولم يقبل من أصحابه أن يعتدوا عليهم بأيّ نوعٍ من أنواع الاعتداءات، وقال بالحرف الواحد الواضح:-

﴿ ما لم يحملوا السلاح بوجه الأمة، فهم من الأمة ﴾

وقد أسأعوا إليه بكلّ أنواع الإساءة.. بل أكثر من ذلك، هو لم يقف عند حدّ (لم يقابل الإساءة بالإساءة)، وإنّما قابل الإساءة بالإحسان، وانهصر تعامله (عليه السّلام) معهم وفق رؤيته الإيمانية والإنسانية، فقرّر ما يلي:

أولاً: بعدم تأديبهم، وقد خرجوا عليه وهو خليفة المسلمين، ولكن لم يحملوا السلاح، ولهذا قال:-

﴿ ما لم يحملوا السلاح بوجه الأمة، فهم من الأمة ﴾

وهذا يعني، نعود إلى مسألة نكران الذات، وكيف أنّ الإمام عليه السلام لم ينظر إلى نفسه، ولكن دائماً نظره إلى القواعد الإيمانية والقواعد الإلهية والقواعد الإنسانية التي تمثّل أسس ارتباط المجتمع بعضه مع بعض.. ولهذا لم يُعاملهم بالمثل.

أولاً: فقد أحسن إليهم.

وثانياً: لم يمحُ أسماءهم من ديوان العطاء، وبقيت أسماؤهم

في ديوان العطاء، يأخذون كما يأخذ غيرهم من بيت المال.

ولهذا، نراه (عليه السلام) تعامل معهم بتربيته وأخلاقه،

وليس بتربيتهم وأخلاقهم.. وحاول أن يبرر لهم أو يعطيهم العذر

عندما قال: أنهم من الأمة ما لم يحملوا السلاح ويقاتلوا.

إذن، دائماً المدرسة الإنسانية تبتني على العفو وتبنتي على

قيم إنسانية أولها: التسامح.. على قيم إيمانية أوضحها وعلى

رأسها: التسامح.

ولهذا، عندما ننتقل إلى المرحلة الثالثة، تقول الفقرة

المباركة:-

﴿وَأَحْسِنِ إِلَىٰ مَنْ أَسَاءَ إِلَيْكَ﴾

دائماً الإساءة من الآخرين إن لم أكن أنا مستحقها فهي دليل

نقص ومرض بمن قام بالإساءة، وهذا يعني وجود النقص أو

المرض في الآخر، فكيف يكون التصرف معه؟...

هل التصرف: أن تمرض أنت كالأخر، وأن تعيش النقص كما

هو عاشه؟!...

فهو بالتأكيد، أن الآخر إن أساء إليّ وأنا غير مستحق لهذه

الإساءة، فهي نتيجة إمّا نقص، وإمّا مرض موجود عند المقابل.

إذا كان الإنسان صاحب رسالة ويحمل هدف، فإنّه بدل أن

يُقابل الإساءة بالإساءة، لا بدَّ أن يلتفت إلى النقص الموجود عند الآخر، ويعمل من أجل رَفْع مستواه الأخلاقي، ويلتفت إلى المرض الموجود عند الآخر، ويعمل من أجل شفاؤه.. ولهذا تقول الفقرة المباركة:-

﴿وَأَحْسِنْ إِلَىٰ مَنْ أَسَاءَ إِلَيْكَ﴾

نستمرُّ بالحديث عن منهج التسامح الإنساني، وأسلوب هذا المنهج في كيفية التسامح مع الآخر، وكيف لا بدَّ أن تكون ردود الفعل إيجابية عندما نرى التصرُّف المُشين أو المُسيء من الآخر. ودائماً التصرُّف المُسيء من الآخر يعني شيء ويعني أشياء، وردود الفعل الإيجابية أو السلبية تعني شيء أو تعني أشياء، فدائماً وجود النقص في التعامل من الآخر والإساءة وعدم السلامة في كيفية التعامل هي إمَّا دليل أنه يعيش مشاكل نفسية في داخله أو يعيش مفاهيم غير سليمة.

بمعنى آخر: أنه ستكون المشكلة إمَّا فكرية وإمَّا نفسية. لأنَّ الإنسان السَّوي لا يمكن أن يصدر منه العمل المُشين، فدائماً يعرض عمله على ما يحمل من فكر، ويعرض عمله على ما يتبنَّى من أخلاق ويعرض عمله على دواخله النفسية والتي تعني أنه لا بدَّ أن يرضى للآخر ما يرتضيه لنفسه.

إذن، عندما يعرض عمله على دواخله النفسية، فما لا يرتضيه لنفسه، لا يمكن أن يتصرَّف به مع الآخر.

ولهذا عندما نعيش حالة فيها سلبية تصرف من الآخرين ووجود إساءة من الآخر، وبالتأكيد أن المقصود والأقرب هي دائماً الإساءة الشخصية، (سواءً كانت إساءة مادية أو معنوية من الآخر) ويمكن أن تتوسّع في مفهوم النصّ وتمتدّ إلى الإساءة الفكرية والإساءة إلى المنهج، ولكن دائماً الأقرب إلى المقصود وإلى الصورة هي الإساءة الشخصية، وكيف أن تتعامل معها.

بمعنى آخر: كيف تكون ردود فعلك تجاهها؟... هل تكون ردود الفعل إيجابية أم سلبية؟!...

يفرض أن تكون ردود الفعل عند الإنسان المصلح إيجابية، وليست سلبية.. لأنّه إذا كانت ردود الفعل سلبية، فستكون أولاً: قد قابلت الإساءة بالإساءة!... وتكون قد تبنيت فكرة المُسيء وعبرت عن شيء من دواخل نفسك.

إذن، لا بدّ أن تكون ردود الفعل إيجابية، وإذا كانت ردود الفعل إيجابية، فلا بدّ أن نلتفت إلى أمرين رئيسيين:

الأمر الأول: هو أن أحاول أن ألتفت إلى نقاط الضعف التي سببت صدور هذه الإساءة من الشخص المُسيء، ونقصد بنقاط الضعف الموجودة عنده، (عند من أساء إليّ)، وأحاول أن أشخص نقاط الضعف تلك.

فمثلاً: دائماً من هو مهزوز الشخصية، ضعيف الشخصية يعيش حالة تهميشية في أسرته، في عمله، في تعلّمه.. يعيش حالة

عدم التعامل السليم مع الآخر، نتيجة وجود الالهزامية في داخله، ضعف الشخصية في داخله، نتيجة تهميشه في حياته، سواءً على صعيد الأسرة أو على صعيد العمل أو على الصعيد التعليمي. إذن، في حالة كهذه، عندما أريد أن أقابله، والنصُّ المبارك يرسم لنا صورة التعامل المثالي مع مثل هذه الحالة فيقول:-

﴿وَأَحْسِنِ إِلَىٰ مَنْ آسَأَ إِلَيْكَ﴾

المعنى الأول إلى الإحسان، وهو المِصداق الكامل: هو أن أرى نقطة الضعف التي سببت من هذا الآخر الإساءة إليّ، فهو لم يكن تحصل منه الإساءة إلا نتيجة وجود سلبية يعيشها في داخله، مرض يعيشه في داخله، مرة أن يكون هذا المرض يعيشه في نفسه (اضطراب نفسي)، ومرة يكون هذا المرض جرّاء التأثير بالإشاعات التي يثيرها الحاقدون على العمل الإصلاحي، وهذه حالة شائعة في العمل الميداني، فحالة الحسد عند البعض تولد الكثير من الشكوك عندهم، الأمر الذي يجعل من تلك الظنون صوراً وتخيّلات سلبية ضد القائم بالعمل الإصلاحي.. والظنُّ السيئ هو نوع من أنواع المرض.. الإنسان الطبيعي دائماً تكون نظرته إلى الآخر ليست نظرة ضيقة ولا سيئة ولا سلبية، وإنما ينظر إلى الآخر كإنسان، وكلُّ إنسان فيه إيجابيات وفيه سلبيات، وكلُّ إنسان ليس بمعصوم، وكلُّ إنسان لا بدّ أن يتدرّج في درجات التكامل.

فإذا لم تكن هذه نظرته بالنسبة لي، وعلى أساسها قد تعامل

وأساء إليّ، هنا يظهر إمّا أن تكون حالة سلبية يعيشها في نفسه، نتيجة عدم ثقته بنفسه وتهميش الآخرين إليه، أو نتيجة ما يحمله من ظنٍّ سيء تجاهي.. إذن، معنى:-

﴿وَأَحْسِنِ إِلَى مَنْ أَسَاءَ إِلَيْكَ﴾

هو أن أفنّش عن سبب هذه الإساءة، لماذا؟... ما الذي دفعه إلى أن يُسيء إليّ؟...

وهذا الجانب فيه جانب تربوي للآخر، جانب شعور بالمسؤولية مع الآخر، فهو ليس فقط يتصرف معه التصرف الحسن، وإنما يحاول أن يُصحّ مسيرته، سواءً كانت هذه المسيرة نفسية وداخلية أو كانت مسيرة فكرية وظنيّة.. وهنا يكون مصداق من مصاديق:-

﴿وَأَحْسِنِ إِلَى مَنْ أَسَاءَ إِلَيْكَ﴾

وبذلك أنت توظفه من غفلته، وبذلك أنت تُرجعه إلى صوابه، تُرجعه إلى استقامته، تُرجعه إلى إنسانيته، تُرجعه إلى قيمه، إلى مبادئه، إذا كان مؤمناً تُرجعه إلى إيمانه وعلاقته مع الله ﷻ.

إذن، هذا الجانب ليس جانب فيه إحسان فقط، وإنما جانب تربوي للآخر وجانب شعور بالمسؤولية تجاه الآخر الذي أساء إليّ.

أمّا أن أحسن لمن هو أحسن إليّ، فهذا ضمن الطبيعي للإنسان السوي.

أما هنا، ﴿وَأَحْسِنِ إِلَىٰ مَنْ آسَأَ إِلَيْكَ﴾، هو أن تلتفت إلى أسباب هذه الإساءة وتحاول أن تعالجها.

أؤكد أن هذا ليس بالأمر السهل في أسلوب التعامل مع الآخرين، وأنه من الأمور الشاقّة في الواقع العملي أن تعمل من أجل أن تصل مع الآخر إلى سبب إساءته وتنجح في معالجة موقفه وتصحيح مسيرته العملية.. وبالتأكيد أن الآخر يكون على قسمين:

- قسم بعيد عنك ولا يعرفك، وهذا القسم دائماً يمكن أن يُعطى شيئاً أكثر من المرونة في التعامل، ولا أقول: (الحق في الإساءة).. فهو لأنه لا يعرفني، أساء إليّ.

هذا النوع ممكن أن أعطيه العذر أكثر، ولكن كذلك يصعب عليّ معالجته أكثر، لأنه بعيد عني وأنا بعيد عنه، ولكن من معاني الإحسان التي لا بدّ أن نعمل ضمن مفهومها ومضمونها هو أن أفتش عنه وعن سبب إساءته، وإن كان بعيداً عني.

لأنني إن كنت حاملاً لرسالتي الإيمانية الإنسانية، فلا بدّ أنني أحبه وإن كان قد أساء إليّ، فأنا لا أحمل له غيظاً ولا حقداً، وعندما لا أحمل عليه غيظاً ولا حقداً، يعني أنني أحبه وإن كانت هذه النتيجة، فيعني لا بدّ أن أسعى من أجل إصلاح ما يحمل من سلبية في داخله.. هذا القسم الأول.

- القسم الثاني: من هو قريب، من هو يعرفني.. أقول: أن القسم الثاني تكون عملية إصلاحه أسهل وأيسر من إصلاح القسم

الأول، لأنَّ الشخص المقصود يعرفني وأنا أعرفه بتمامه، فبمقدار ما هو يعرفني، أنا أعرفه.

أمَّا القسم الأول باعتبار بُعده عني، فأنالاً لا أعرف كلَّ سلبياته.. القسم الثاني باعتبار قُربه منِّي، فإنني أعرف ما عنده من سلبيات.

ودائماً معرفة السلبيات عند الآخر يساعد على برمجة ومنهجية العمل من أجل تصحيح مسيرته وإصلاح سريرته، ولهذا تكون محاولة معرفة دواخل الشخص القريب أسهل من معرفة دواخل الشخص البعيد.

إذن، تشخيص الداء الذي هو نصف الدواء بالنسبة إلى القريب يكون أسهل، وإن كان هناك بعض التعقيدات من جهات أخرى، ولكن صاحب الرسالة والمنهج الإصلاحى لا ينشغل بالتعقيدات الجانبية، لأنَّه صاحب قضية وهدف يسعى إلى تحقيقها بدون النظر إلى القضايا الجانبية، فدائماً القريب لا أتوقَّع منه الإساءة، ممكن أن أتوقَّعها من البعيد، ولهذا ممكن للإساءة أن يكون لها وقع في داخلي أكبر وأقوى من الوقع الذي يأتي من الإساءة من البعيد.

ولكن نحن الآن نتكلَّم عن موضوع كيفية الإحسان إلى مَنْ أساء، هنا هذا مَنْ أساء، إذا كان بعيداً أو كان قريباً. إذا كان قريباً، فإنني سأعرف مُجمل ما يعيش من سلبيات في

داخله، وممكن أن أبرمج وأعمل من أجل تصحيح تلك السلبيات، سواءً كانت سلبية بمعنى ما يعيشه من نقص داخلي، أو سلبية بمعنى ما يعيشه من مفهوم خاطئ عني.

بالتأكيد أن هذا هو المفهوم السليم للنص الذي يقول:-

﴿وَأَحْسِنْ إِلَىٰ مَنْ آسَأَ إِلَيْكَ﴾

هذا الإحسان الوارد في النص أعلاه إحسان عملي وليس إحسان نظري، هنا يكون تماماً قد قابلتُ إساءة الشخص المسيء بإحسان، وصححتُ ما في داخله، وصححتُ ما في فكره، وبهذا ستكون نتيجة إحساني له، لا تعود لي فقط!... وإنما ستعود إلى المجتمع ككل، لأنني صححتُ السلبية التي كانت في داخل الطرف الآخر، فسيكون تصرفه معي ومع الآخرين سليماً.. وإن بقي على سلبيته التي في داخله، فإنه سيتصرف معي ومع غيري بإساءة.. كلُّ بقدره، فالذي يعيش حالة النقص في داخله أو التهميش في داخله، كلما يرى أن الآخر أفضل منه في تصوُّره، سيكون أكثر إساءة له، أو في تصوُّراته وظنونه.

النتيجة: إنَّ هنا الإحسان سيكون إحساناً عملياً، تربوياً لمن أساء إلي.. ودائماً الذي يعيش حالة الإحسان إلى الآخر، يعني أن نفسه كبيرة، يعني نفسه عالية، يعني نفسه نقيّة، يعني نفسه صافية، قريبة من الصفاء، يعني يعيش الشفافية بمعناها الإيماني، بمعناها الإنساني.. والذي يعيش هذه المفاهيم في تقديرنا ستكون لا

حدود لتحمله ولا حدود لعطائه.

والله ﷻ وعن طريق تعاليم نبيه الكريم ﷺ والأئمة الطاهرين (عليهم السلام) دائماً يريد بالإنسان الذي هو فرد من أفراد المجتمع والأمة والبشرية أن يصل إلى درجات تكاملية تتحقق فيها حال الإحسان والتضحية والإيثار وكل معاني الخير والعطاء، وأن يعيش الإنسان المحسن حالة الإحسان العملي مع الآخر، وليس فقط مع من أحسن إليه ولكن حتى مع من تعامل معه بإساءة.

إذن، هذا هو المعنى الأول لـ ﴿وَأَحْسِنِ إِلَىٰ مَنْ آسَأَ إِلَيْكَ﴾.. وهذا هو المعنى العلمي والتربوي، والمعنى الذي فيه تجسيد للشعور بالمسؤولية.

المعنى الآخر هو الأقل مرتبة، وهو ما نسميه بالتعامل الأخلاقي.. وهنا تكون ردود الفعل للشخص الذي أسىء إليه والموجهة إلى من قام بالإساءة ردود مملوءة بالكلمة الطيبة والأخلاق، وهذه تتمثل بأمرين:

الأمر الأول: عندما ألتقيه فلا أذكره بما أساء، وكأن شيئاً لم يكن، وكأنني لم أسمع الإساءة، ولم يصلني أي شيء.

والأمر الثاني: هو أنني أتصرف معه بأخلاق وإنسانية وكلمات طيبة محاولاً أن أعمره بها، وهذه درجة أقل من الأولى، لأنه لا يتم معالجته.

الأولى فيها يمكن أن تتم معالجة من أساء.. أما الثانية لا تتم

بها معالجته، وإنما ممكن أن يتمَّ بها إيقاف المُسيء عن استمراره بإساءته.

بالتأكيد أن ذلك مرحلة جيّدة، فبمقدار ما أنا أُبين له من صدق ومن محبة وكما قلنا أنني لم أحمل له إلاَّ الحبَّ، فالإنسان الذي يُحبُّ الله ﷻ لا يكون في قلبه مكاناً لأن يرفض أحداً. ولهذا، أنا لا أحمل له إلاَّ المحبة وأحاول أن أوصل له ذلك بكلمات طيبة.

هنا أولاً: ستوقفه عن إساءته.

ثانياً: من الممكن أن هذا التصرف وبالكلمات الطيبة سيُخجله. فهناك من الناس من لا يرتدع إن قوبل بالمثل، ولكن يرتدع إن قوبل بالحسنى.. هناك من الناس من يزداد إذا قوبل بالمثل، ولكن ممكن أن يقفَ عند حدّه إذا قوبل بالحسنى.. هناك من الناس من يشعر بشيء من الخجل والحياء عندما يُسيء إلى الآخر ويقابله الآخر بالحسنى، وإن كان هذا الإجراء الثاني لا يكون معالجاً كالأول، ولكن يكون مُحدداً ويكون ضمن معنى ﴿وَأَحْسِنِ إِلَىٰ مَنْ آسَأَ إِلَيْكَ﴾.

كلُّ ذلك إذا كانت الإساءة شخصية، وإذا كانت الإساءة للفكر، فتلك لها صورة أخرى في التعامل ويكون الإحسان كذلك على مستويين:

المستوى الأول (الطريقة المباشرة): هو النقاش الفكري الجاد

مع الاحترام وكما يُعبر القرآن الكريم:-

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ
بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ.....﴾^(١)

هذا على الصعيد الأول.

وعلى الصعيد الثاني (الطريقة غير المباشرة): هو أن تجيبه

بعملك وليس بقولك.

ودائماً المطلوب أن نجيب الآخرين بأعمالنا وليس بأقوالنا،

ولهذا أئمة أهل البيت (عليهم السلام) دائماً يأمرن ويطلبون من

المسلمين، من المحببين، من التابعين، ويقولون لهم:-

﴿كونوا لنا دعاة صامتين﴾

يعني: أجبوا الآخرين بسلوكم.. ارفعوا ظنون الآخرين

وشكوكهم وتساؤلاتهم بأعمالكم، بسلوكم، بصدقكم في عملكم،

وبوضوحكم في سلوكم.. وهذه مسألة دائماً نحن بحاجة إليها، أن

يكون فكرنا فكرياً عملياً، وليس فكرياً نظرياً.. وأن يكون حملنا

لإسلامنا، لإيماننا بشكل عملي وليس بشكل نظري.. دائماً الأشكال

النظرية مما تزيد في المشكلة، لأن المتبنيات النظرية في بعض

الأوقات توقع حاملها بازواجية وتوقعه باثينية وتوقعه بحالة من

عدم الوضوح.

أما الذي يحمل الرسالة وبشكلها العملي، يحمل الإيمان بشكله

(١) سورة النحل/آية/١٢٥.

الحياتي التطبيقي، دائماً يعيش الوضوح ويكون أقرب لسلامة العمل والابتعاد عن الوجهين وعن الاثنية وعن الصورتين وما شابه وشاغل ذلك.. ولهذا دائماً إذا كانت الإساءة إلى الفكر نحتاج إلى: إمّا الحوار الهادف بالكلمة الطيبة وبالتالي هي أحسن أو أجيبه بعلمي وبسلوكي، من دون كلام وذاك هو الأمثل والأفضل والأحسن.

ولكن تبقى النتيجة سواءً كانت إساءة إلى الشخص أو إساءة إلى الفكر.. المطلوب هو الإحسان مقابل الإساءة.

الفصل الأول

المبحث الثالث

مبحث تفسيري

مبحث تفسيري

تحتوي الآية الكريمة (٧٠) من سورة الإسراء المباركة معانٍ جليّةً في تكريم الإنسان وتفضيله على سائر المخلوقات التي خلقها الله ﷻ، ولغرض الاستفادة في استقصاء مقاصد هذه الآية الكريمة رجعنا إلى تفسيرنا: (البيان والتبيان في تفسير وتنزيل القرآن) ج١٣/ص٢٧٩، وما بعدها لتفسير تلك المضامين الشريفة، فذكرنا ما يلي:

((قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾:

يُخبر الله ﷻ بهذه الآية، عن تكريمه بني آدم، وتفضيله إياهم، حيث خلقهم جميعاً، برّهم وفاجرهم على أحسن الصور التي تتمثل في اعتدال القامة وتناسق الخلق وجماله ونعمة العقل والإدراك، وفي طعامهم وشرابهم، وكلّ شأنٍ من شؤون حياتهم يتميّزون به عن غيرهم من جميع مخلوقاته، وإتماماً لتكريمه سبحانه إياهم، وهبهم قدرةً تمكنهم من التسلّط على ما في الأرض، من كنوز ومياه ومعادن وبتروول، وغير ذلك ممّا جعلهم يقيمون الصناعات ويستنبتون الزروع، ويغرسون الأشجار، ويملكون سبلّ التقدم

والعُمران كما مكنهم من الانتفاع بما في السماء، من هوائها وسحابها، وسائر كواكبها وأجرامها، التي أمدتهم وتمدُّهم بطاقات كثيرة لا غنى لكائن حيٍّ عنها، فضلاً عن الاهتداء بها في ظلمات البرِّ والبحر.. وقصارى القول، أنَّ الله ﷻ سَخَّرَ كُلَّ شَيْءٍ لَتَكْرِيمِ الْإِنْسَانِ، وكان هذا التسخير بقدرته (تعالى)، وليس بقدره البشر.

وقوله تعالى: ﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ

الطَّيِّبَاتِ﴾:

أي: أنعمنا عليهم، فحملناهم في البرِّ على الدوابِّ من الإبل والخيول والبغال وعلى غيرها من وسائل الانتقال، كما حملناهم في البحر على السفن المختلفة الأشكال والأحجام، المختلفة الأغراض التي تجمع فنون المطاعم والمشارب اللذيذة التي منحناهم إيَّاهَا، ممَّا لا يتسنَّى لهم أن يحصلوا عليها بصُنْعِهِمْ، وإنْ صنعوها فبتيسير الله ﷻ وإقداره، وإجرائها في مواد مخلوقة له (سُبْحَانَهُ)، أمَّا غيرهم من الحيوانات فأرزاقها ممَّا تَعَاَفَهُ أَنفُسُهُمْ.

وقوله تعالى: ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾:

أي أنَّ الله (جَلَّ شَأْنُهُ) فضَّلَهُمْ تَفْضِيلًا عَظِيمًا عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقَهُمْ (سُبْحَانَهُ) بأمر كثيرة، إذ شَرَّفَهُمْ بِالْعَقْلِ الَّذِي هُوَ عَمْدَةُ التَّكْلِيفِ وَبِهِ يُعْرَفُ اللهُ ﷻ، وَتَفَهُمَ تَعَالِيمَهُ، وَيَحْصُلُ بِهِ التَّمْيِيزُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ وَالْحَسَنِ وَالْقَبِيحِ، وَذَلِكَ مِمَّا يُوجِبُ عَلَيْهِمْ شُكْرَ الْمُنْعَمِ الْمُتَفَضِّلِ، وَيَتَحَقَّقُ شُكْرُهُ بِتَوْحِيدِهِ، وَإِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ لَهُ

(سُبْحَانَهُ)، ورفض الشرك الذي لا يقبله من له أدنى تمييز.
فكيف بمن فضل على ما سوى الملائحة الأعلى، من كل ما يدبُّ
على وجه الأرض أو يُحلق في أرجاء السماء، وكما فضلهم بالعقل
فضلهم بأمور خلقية ذاتية، مثل النطق والصورة الحسنة، والقامة
المديدة المعتدلة، إلى غير ذلك مما امتاز به الإنسان عن سائر
الحيوان.)) (انتهى).

إن فضل الوالدين على الولد فضل كبير ذو منزلة ربانية
رفيعة.. ولهذا تناول القرآن الكريم معاملة الولد لوالديه، مبيِّناً
منزلتهما عند الله ﷻ، وقد تطرّفنا في تفسيرنا: (البيان والتبيان
في تفسير وتنزيل القرآن) ج/(١٣)/ص(١٩٢-١٩٦)، وما بعدها
موضحين منزلة الوالدين في معايير القرآن الكريم فذكرنا ما يلي:

((قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ
إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفًّا
وَلَا تَنْهَرَهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا*وَخَفَضْ لَهُمَا جَنَاحَ الدُّلِّ مِنَ
الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمَهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾^(١))

بعد أن نهى الله كلَّ مكلفٍ عن أن يجعل مع الله إلهاً آخر، لأنّه
لا ربَّ سواه.. أتبع ذلك بيان: أن الله قضى أمراً قاطعاً: ألا يعبدوا
إلا الله، وأن يحسنوا إلى والديهم.

والمعنى: أمر ربك يا محمد، أن يوحدّه عباده بالطاعة ولا

(١) سورة لقمان/آية/(٢٣-٢٥).

يُشْرِكُوا بِهِ أَحَدًا، فَهُوَ رَبُّهُمْ وَخَالِقُهُمْ وَمُدَبِّرُ أَمْرِهِمْ، وَصَاحِبُ الْآلَاءِ وَالنِّعَمِ الَّتِي يَنْعَمُونَ بِهَا، يُدْرِكُونَ بَعْضَهَا وَيَخْفَى عَلَى كَثِيرٍ مِنْهُمْ مُعْظَمَهَا وَيُعْيِيهِمْ وَيُعْجِزُهُمْ عَدُّهَا وَحَصْرُهَا، وَنَوَاصِيهِمْ بِيَدِهِ، ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾^(١) فَمِنْ خَطَلِ الرَّأْيِ وَسُوءِ التَّقْدِيرِ أَنْ يُشْرِكُوا مَعَهُ إِلَهًا آخَرَ، لَا يَضُرُّ وَلَا يَنْفَعُ، وَلَا يَمْلِكُ مِنْ أَمْرِ نَفْسِهِ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نَشُورًا.

وقوله: ﴿وَبِالنَّوَالِدِينَ إِحْسَانًا﴾ وكما حكم وألزم الأولاد أن يُحْسِنُوا إِلَى وَالِدَيْهِم بِالْقَوْلِ الطَّيِّبِ وَالرِّعَايَةِ التَّامَّةِ وَالْقِيَامِ بِشَأْنَيْهِمَا، فَهَمَا أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ الصُّحْبَةِ، وَرِضَا اللَّهِ فِي رِضَاهُمَا وَسَخَطُهُ فِي سَخَطِهِمَا.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَبْتَلِنُ عِنْدَكَ الْكَبِيرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٍ وَلَا تَنْهَرَهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾

أي: إِذَا تَقَدَّمَتْ بِهِمَا أَوْ بِأَحَدِهِمَا السِّنُّ وَانْتَهَيَا إِلَى ضَعْفِ بَعْدِ قُوَّةٍ، وَمَرَضٍ بَعْدِ صِحَّةٍ وَلَمْ يَسْتَطِيعَا الْقِيَامَ عَلَى أَمْرِهِمَا، وَتَدْبِيرِ شَأْنَيْهِمَا لَمَّا أَصَابَهُمَا الْكِبَرُ مِنْ وَهْنِ الْجِسْمِ وَإِلْحَاحِ الْعِلَّةِ وَضَعْفِ التَّفَكِيرِ، وَتِلْكَ الْحَالُ مَظْنَةٌ أَنْ يَصْدُرَ مِنْهُمَا مَا يُغْضِبُ أَوْ يَثْقُلُ عَلَى النُّفُوسِ، أَوْ يَعْوِقُ عَنِ سَعْيِ فِي الدُّنْيَا أَوْ يُكْثِرُ النِّفْقَةَ وَيُرْهِقُ الْأُسْرَةَ وَيَشُقُّ عَلَيْهَا إِنْ حَدَثَ ذَلِكَ، فَلَا تَقُلْ لِنَوَالِدَيْكَ الْكَبِيرِينَ أَوْ لِأَحَدِهِمَا مَا يَدُلُّ عَلَى ضَجْرِكَ، أَوْ يُسِيءُ إِلَيْهِمَا، مِنْ قَوْلٍ بَعِيدٍ عَنِ

(١) سورة الأنعام/آية/١٨.

حُسْنُ الْأَدَبِ، أَوْ فِعْلٌ لَا يَلِيْقُ مِنَ الْوَلَدِ لِأَبِيهِ، فَقَدْ غَدَّاهُ مَوْلُودًا، وَعَالَةً يَافِعًا، وَسَهْرَ لَيْلِهِ لِسَقْمِ أَصَابِهِ، أَوْ مَرَضَ أَلَمَ بِهِ، أَيْ كَوْنَ جِزَاءَ هَذَا الْأَبِ الْحَانِي غِلَظَةَ الْقَوْلِ وَجَفَاءَ الْخُلُقِ؟... أَوْ يَكُونُ جِزَاءَ الْأُمِّ الرَّعُومِ أَنْ تُقَابِلَ بِمَا يَكْسِرُ قَلْبَهَا، وَيُثِيرُ أَلْمَهَا وَيُنَالُ مِنْ كِرَامَتِهَا، وَهِيَ الَّتِي كَانَ بَطْنُهَا لَهُ وَعَاءٌ، وَثِدْيُهَا سِقَاءً، وَحَجْرُهَا مِهَادًا وَوِطَاءً، تُؤْتِرُهُ عَلَى نَفْسِهَا، وَتَقْدِيهِ بِرُوحِهَا، هَذَا فَضْلًا عَنِ أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ أَقْدَامِهَا، فَبِرُّهَا خَيْرٌ وَبِرْكَةٌ، وَغْنَى وَسَعَادَةٌ، وَبِالْجَمَلَةِ فَبِرُّ الْوَالِدَيْنِ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ فِي أَجْمَلٍ وَأَبْهَى حُلَّةٍ، فَإِنَّهُ بَعْضُ الْوَفَاءِ لِفَضْلِهِمَا، ﴿هَلْ جِزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾^(١): وَإِنَّ مِنْ سَوْءِ الطَّالِعِ أَنْ يَعُقَّ الْوَلَدُ أَبُويِهِ، فَيُقَابِلُ الْحَسَنَةَ بِالسَّيِّئَةِ، وَالنَّعْمَ وَالْفَضْلَ بِالْجُحُودِ وَالْكَفْرَانِ وَالْعَنَاءِ بِالتَّرْكِ وَالْإِهْمَالِ، إِنَّ فِي هَذَا لَبَوَارًا وَخُسْرَانًا فِي الدُّنْيَا، وَغَضَبًا مِنَ اللَّهِ ﷻ وَحَرَمَانًا مِنْ رِضْوَانِهِ فِي الْآخِرَةِ.

وقوله تعالى: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾:

أَي: إِنَّ حَقَّ الْوَالِدَيْنِ لَا يَقِفُ عِنْدَ إِخْفَاءِ الضَّجْرِ وَالبُعْدِ عَنِ الْإِنْتِهَارِ وَالزَّجْرِ، وَلَا عِنْدَ الْإِحْسَانِ بِالْقَوْلِ الطَّيِّبِ وَاللَّفْظِ اللَّيِّنِ كَمَا جَاءَتْ بِهِ الْآيَةُ السَّابِقَةُ، بَلْ إِنَّ وَرَاءَ ذَلِكَ مَا جَاءَتْ بِهِ هَذِهِ الْآيَةُ مِنْ أَنْ تَبْسُطَ لَهُمَا مِنْ نَفْسِكَ، وَتَخْفِضَ جَنَاحَ الذُّلِّ مِنْكَ، كَمَا يَخْفِضُ

(١) سورة الرحمن/آية/٦٠.

ويبسط الطائر جناحه على فراخه، رعايةً وشفقةً وحناناً، بحيث لا يشوب هذا الخفض تكلف ولا تصنع ولا رياء، ولا تخالطه رائحة استعلاءٍ أو يُشمّ منه أثر كبرٍ أو منٍّ، بل يكون ذلك عن رحمةٍ لمن أسدى إليك معروفًا وقدّم إليك برًّا ورعايةً.

وقد أتاح الله لك فرصةً فأغتنمها بأداء بعض ما عليك لهما، والوفاء بما لديك من دئيتهما، فهما مفتقران إلى من يأخذ بأيديهما ويعطف عليهما ويقوم على برّهما في كبرهما، وأنت أولى الناس بهما، ثم لا يقف بك الأمر عند هذا، بل توجه إلى الله بقلب ضارعٍ تقيٍّ أن يرحمهما برحمته الواسعة في الدنيا والآخرة، فتكون بذلك نعم الولد الذي يدعو لوالديه فيصلهما برّه حتى بعد وفاتهما ولا ينقطع عملهما وأنت تدعو لهما، وهذا الدعاء جزاء تربيتهما لك، ورحمتها بك، فقل: ربّ ارحمهما كما ربّيتني صغيراً، فتكون نعم المجازي والمكافيء.

وفي أمر الله الولد أن يدعو لوالديه بالرحمة مع قيامه ببرّهما والإحسان إليهما، ما يشير إلى أنّ الولد مهما بذل وأعطى وأحسن إلى والديه فلا يستطيع أن يوفيهما حقّهما، وأنه لا يفي بذلك الحقّ، سوى الله ﷻ، فلذلك يدعوهُ سبحانه ليُجبرَ عنه النقص في برّهما.. هذا وإنّ برّ الوالدين لا يتوقّف على كونهما مسلمين أو طائعين، بل يشملها ولو كانا فاسقين أو كافرين ولكنّه لا يطيعهما في كفر أو فسق، قال تعالى: ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا

لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا....»^(١)،
وله أن يدعو لأبويه الفاسقين بالغفران والرحمة بعد موتهما، طمعاً
في فضل الله، ولكن ليس له أن يدعو لهما بذلك إن كانا كافرين،
لقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَفْرِضُوا لِلْمُشْرِكِينَ
وَلَوْ كَانُوا أَوْلِيَٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾^(٢).
هذا وإن برَّ الوالدين لا ينقطع بموتهما، بل جعله الله موصولاً
بعد وفاتهما إكراماً لحقهما وتوكيداً لمكانتهما.)) (انتهى).

لأهمية وجود الوالدين في حياة الإنسان أكد القرآن الكريم
في عدة آيات على أهمية احترام الولد لوالديه، ومن هذه
الآيات المباركة الآية ١٤ والآية ١٥ من سورة لقمان المباركة،
ولقد وجدنا في هذا المقام أن نُعرج على تفسير هاتين الآيتين
المباركتين كما جاء في تفسيرنا: (البيان والتبيان في تفسير وتنزيل
القرآن) ج/١٨ ص/١٦٨، وما بعدها فذكرنا ما يلي:-

((قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنَا
عَلَىٰ وَهْنٍ وَفَصَّالَتْهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ* وَإِنْ
جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا
وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ
مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّتُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

كلام مستأنف على نهج الاستطراد في أثناء وصية لقمان

(١) سورة لقمان/آية/١٥.

(٢) سورة التوبة/آية/١١٣.

تأكيداً لِمَا فِي الوصية من النهي عن الإِشْرَاقِ، فهو من كلام الله ﷻ.
 والمعنى: وأمرنا الإنسان بأن يرعى والديه ويجعل لأمه أوفر نصيب وأعظم قدر من العناية والرعاية، لأنها حملته جهداً على جهد، وثقلاً على ثقل، يتزايد به ضعفها ويتضاعف، لأنَّ العمل كلما عظم ازدادت ثقلاً وضعفاً، وقد وَقَّتَ اللهُ ﷻ فِطامه في هذه الآية بعامين، للإشارة إلى أنها الغاية التي لا تُتَجَاوَزُ، والأمر فيها دون ذلك موكول إلى اجتهاد الأم.

وظاهر الآية أنَّ مدة الرضاع عامان، ويؤيده قوله تعالى: -

﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضَعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ

يُتِمَّ الرِّضَاعَةَ...﴾^(١)

وقوله تعالى: ﴿أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾: ووصينا

الإنسان أن اشكر لي على نعمتي عليك، ولوالديك على ما تحملاً من المشقة فيك حتى استحكمت قواك، وشكراً لله يكون بطاعته وفعل ما يرضى عنه، وشكر الوالدين بصلتها والبر بهما والدعاء لهما، إلى المرجع والمآب لا إلى غيري فأجازيك على ما صدر عنك من خير أو شر، ومن شكر أو كفر وهذا تعليل لوجوب الامتثال لِمَا أَمَرَ اللهُ.

((وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ

بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبَهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾:

(١) سورة البقرة/آية/٢٣٣.

أي: وإن حمك والداك بجهد على أن تُشرك بالله ﷻ ما لا تعلم أنه يستحق العبادَة، فلا تُطعهما وصاحبهما في الدنيا صحاباً معروفاً يرتضيه الشرع، ويقتضيه الكرم والمروعة، كالقيام بشؤونهما من طعامٍ وكِسوةٍ، وعدم جفائهما وانتهارهما، ومن عيادتهما إذا مَرِضا ومواراتهما إذا ماتا.

وذكر لفظ: ﴿فِي الدُّنْيَا﴾: لتهوين أمر الصُّحبة، والإشارة إلى أنها في أيام قلائل وشيكة الانقضاء، فلا يضرُّ تحملُ مشقتها لقلَّة أيامها وسرعة مُضيِّها.

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾، معناه:

واسلكُ طريقَ المؤمنين في دينك، ولا تتَّبِعْ سبيلهما فيه، وإن كنتَ مجبوراً بحسُنِ مُصاحبتهما في الدنيا، ثم إليَّ مرجعك ومرجعهما فأجازيك على إيمانك وأجازيهما على كفرهما.)) (انتهى).

إنَّ ثوابتِ التَّربيةِ الإيمانيةِ حدَّدتِ واجباتِ الولدِ تجاهِ والديه وكيفيةِ التَّأدُّبِ في مخاطبتهما، ولإلقاءِ الضوءِ على الثوابتِ الرساليةِ لابدَّ لنا من الرجوعِ إلى تفسيرنا: (البيان والتبيان في تفسير وتنزِيلِ القرآن) /ج ١٣/ ص ١٩٢، وما بعدها، فذكرنا ما يلي:

((قوله تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٍّ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا* وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنْ

الرَّحْمَةِ وَقَتْلَ رَبِّ أَرْحَمَهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿١﴾

بعد أن نهى الله كلَّ مُكَلَّفٍ عن أن يجعل مع الله إلهاً آخر، لأنه لا ربَّ سواه.. أتبع ذلك، بيان أن الله قضى أمراً قاطعاً: ألاَّ يعبدوا إلاَّ الله، وأن يُحسِنوا إلى والديهم.

والمعنى: أمر ربُّك يا محمد، أن يوحدَه عباده بالطاعة ولا يُشركوا به أحداً، فهو ربُّهم وخالقهم ومُدبِّر أمرهم، وصاحب الآلاء والنعم التي يتعمون بها، يُدرِّكون بعضها ويخفي على كثير منهم معظمتها ويعيبهم ويعجزهم عدُّها وحصرها، ونواصيهم بيده، ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾^(٢) فمن خطل الرأي وسوء التقدير أن يُشركوا معه إلهاً آخر، لا يضرُّ ولا ينفع، ولا يملك من أمر نفسه موتاً ولا حياةً ولا نشوراً.

وقوله: ﴿وَبِالنَّوَالِدِينَ إِحْسَانًا﴾ وكما حكم وألزم الأولاد أن يُحسِنوا إلى والديهم بالقول الطيب والرعاية التامة والقيام بشأنهما، فهما أحقُّ الناس بحسن الصُّحبة، ورضا الله في رضاها وسخطه في سخطها.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَبْتَلِنُ عِنْدَكَ الْكَبِيرَ أَحَدَهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَمْرًا وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾

أي: إذا تقدّمت بهما أو بأحدهما السنُّ وانتهيا إلى ضعف بعد قوة، ومرض بعد صحة ولم يستطعا القيام على أمرهما، وتدبير

(١) سورة لقمان/آية(٢٣-٢٥).

(٢) سورة الأنعام/آية/١٨.

شأنها لما أصابهما الكبير من وهن الجسم وإلحاح العلة وضعف التفكير.

وتلك الحال مظنة أن يصدر منهما ما يُغضب أو يثقل على النفوس، أو يعوق عن سعي في الدنيا أو يكثر النفقة ويُرهبق الأسرة ويشقُّ عليها إن حدث ذلك، فلا تقل لوالديك الكبيرين أو لأحدهما ما يدلُّ على ضجرك، أو يُسيء إليهما، من قول بعيد عن حُسن الأدب، أو فعل لا يليق من الولد لأبيه، فقد غداه مولوداً، وعالاه يافعاً، وسهر ليله لسقم أصابه، أو مرض ألمَّ به، أيكون جزاء هذا الأب الحاني غلظة القول وجفاء الخلق...؟

أو يكون جزاء الأمِّ الرِّووم أن تقابل بما يكسر قلبها، ويثير ألمها وينال من كرامتها، وهي التي كان بطنها له وعاء، وتديها سقاءً، وحجرها مهاداً ووطاءً، تؤثره على نفسها، وتفديه بروحها، هذا فضلاً عن أن الجنة تحت أقدامها، فبرُّها خير وبركة، وغنى وسعادة، وبالجملة فبرُّ الوالدين ينبغي أن يكون في أجمل وأبهى حلِّه، فإنه بعض الوفاء لفضلهما، ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾^(١): وَإِنَّ مِنْ سَوْءِ الطَّالِعِ أَنْ يَعُقَّ الْوَلَدَ أَبُوَيْهِ، فيقابل الحسنة بالسَّيِّئَةِ، والنَّعْمَ وَالْفَضْلَ بِالْجُحُودِ وَالْكَفْرَانِ وَالْعَنَاءِ بِالتَّرْكِ وَالْإِهْمَالِ، إِنَّ فِي هَذَا لَبَوَّاراً وَخُسْرَاناً فِي الدُّنْيَا، وَغَضَباً مِنَ اللَّهِ ﷻ وَحِرْمَاناً مِنْ رِضْوَانِهِ فِي الْآخِرَةِ.

(١) سورة الرحمن/آية/٦٠.

وقوله تعالى: ﴿وَخَفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾:

أي: إنَّ حقَّ الوالدين لا يقف عند إخفاء الضَّجَرِ والبُعد عن الانتهار والزَّجْر، ولا عند الإحسان بالقول الطَّيِّبِ واللَّفْظِ اللَّيِّنِ كما جاءت به الآية السابقة، بل إنَّ وراء ذلك ما جاءت به هذه الآية من أن تبسط لهما من نفسك، وتخفض جناح الذُّلِّ منك، كما يخفض ويبسط الطائر جناحه على فراخه رعايةً وشفقةً وحناناً، بحيث لا يشوب هذا الخفض تكلفٌ ولا تصنعٌ ولا رياء، ولا تخالطه رائحة استعلاءٍ أو يُشَمَّ منه أثرٌ كبيرٌ أو منٌّ، بل يكون ذلك عن رحمةٍ لمن أسدى إليك معروفاً وقدمَ إليك برّاً ورعايةً.

وقد أتاح الله لك فرصةً فأغتنمها بأداء بعض ما عليك لهما، والوفاء بما لديك من دَيْئِهما، فهما مفتقران إلى من يأخذ بأيديهما ويعطف عليهما ويقوم على برِّهما في كِبَرِهما، وأنت أولى الناس بهما، ثم لا يقف بك الأمر عند هذا، بل توجَّهْ إلى الله بقلبٍ ضارعٍ تقيٍّ أن يرحمهما برحمته الواسعة في الدنيا والآخرة، فتكون بذلك نعمَ الولد الذي يدعو لوالديه فيصلهما برِّه حتى بعد وفاتهما ولا ينقطع عملهما وأنت تدعو لهما، وهذا الدعاء جزاء تربيتهما لك، ورحمتها بك، فقل: ربَّ ارحمهما كما ربَّياني صغيراً، فتكون نعمَ المُجازي والمكافيء.

وفي أمر الله الولد أن يدعو لوالديه بالرحمة مع قيامه ببرِّهما

والإحسان إليهما، ما يشير إلى أنّ الولد مهما بذل وأعطى وأحسن إلى والديه فلا يستطيع أن يُوفيهما حقَّهما، وأنه لا يفي بذلك الحقَّ سوى الله تعالى، فلذلك يدعو سبحانه ليُجبرَ عنه النقص في برِّهما.

هذا وإنَّ برَّ الوالدين لا يتوقَّف على كونهما مسلمين أو طائعين، بل يشملها ولو كانا فاسقين أو كافرين ولكنَّه لا يطيعهما في كفر أو فسق، قال تعالى: ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا...﴾^(١)، وله أن يدعو لأبويه الفاسقين بالغفران والرحمة بعد موتهما، طمعاً في فضل الله، ولكن ليس له أن يدعو لهما بذلك إن كانا كافرين، لقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾^(٢). هذا وإنَّ برَّ الوالدين لا ينقطع بموتهما، بل جعله الله موصولاً بعد وفاتهما إكراماً لحقَّهما وتوكيداً لمكانتهما. ((انتهى)).

يُعتبر القرآن الكريم المصدر الإلهي الذي انبثقت منه كلُّ التعاليم الإيمانية المباركة ومن هذه التعاليم التي أكَّدها القرآن الكريم موضوع تعليم الإنسان أن يترك حالة البخل، لأنَّها حالة مذمومة، فاستعرض القرآن الكريم في الآية (١٣٤) من سورة آل

(١) سورة لقمان/آية/١٥.

(٢) سورة التوبة/آية/١١٣.

عمران المباركة بعض الصفات الرفيعة التي تنبغي أن يتحلَّى بها الإنسان المؤمن، وقد بحثنا مقاصد هذه الآية الكريمة في تفسيرنا: (البيان والتبيان في تفسير وتنزيل القرآن) ج ٣١/ص ٢٧٢، فذكرنا ما يلي:

((....ثم وصف الله ﷻ عباده المتقين ببعض صفاتهم التي تؤهلهم لمغفرته، ودخول جنَّته فقال:-

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ...﴾

النفقة

أي: في اليسر والعسر، والفرح والحزن، والمنشط والمكروه. والمراد أنهم يُنفقون في كلِّ أحوالهم، فهي دائرة بين السراء والضراء.. وهذه هي الصفة الأولى.

وإنما ابتداء بالإِنفاق، لأنَّ الجود بالمال - وبخاصة في حال العسرة والشدة - من أشقِّ الأمور على النفوس.

وفيه أقوى الأدلة على الإخلاص، لأنَّ حاجة المسلمين إلى الإِنفاق - آنذاك بل وكلَّ آن - كانت أشدَّ لمجاهدة العدو، ومواساة المسلمين، ولأنَّ النهي عن الربِّا يستدعي بديلاً عنه.. ولذلك يقترن النهي عن الربِّا - في القرآن - بالحثِّ على الصدقة.

وحذف مفعول ﴿يُنْفِقُونَ﴾: ليعمَّ كلَّ ما يصلح للإِنفاق، أو لأنَّ المراد وصفهم بالإِنفاق دون نظرٍ إلى ما يُنفقون، كما تقول: فلان يُعطي ويمنع.. لا تقصد إلا وصفه بالإعطاء والمنع.

كظم الغيظ

﴿وَالكَاطِمِينَ الْغَيْظِ﴾:

صفة ثانية.. وكَظَمَ الغيظ: حبسه وكَتَمَهُ مع القدرة على إمضائه.. والغيظ: هيجان الطبع عند رؤية ما يُنكَر، والفرق بينه وبين الغضب - على ما قيل - أنَّ الغضب يتبعه إرادة الانتقام البتة ولا كذلك الغيظ.. والغيظ أصل الغضب، وكثيراً ما يتلازمان.

وكظم الغيظ من أجمل الأخلاق وأنبأها وأحبها إلى الله.. وفي

الحديث الشريف:-

﴿مَنْ كَظَمَ غَيْظًا وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْفِذَهُ مَلَأَ اللَّهُ جَوْفَهُ

أَمْنًا وَإِيمَانًا﴾

وعبّر في الصفة الأولى بالفعل المضارع ﴿يُنْفِقُونَ﴾: قصداً

لإرادة أن يُجِدُّوا الإتفاق من آنٍ لآخر.

وعبّر بالكاظمين وهو اسم فاعل: لقصد الثبات والاستمرار

على ضبط النفس.

العفو

﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾:

هذه صفة ثالثة جاءت على اسم الفاعل للدلالة على الثبوت

والدوام أيضاً.

والعفو: ترك عقوبة مَنْ يستحقُّ العقوبة من الناس، لذنبٍ

جَنَاهُ، وهو أكمل من كَظَمَ الغيظ، لأنَّ الغيظ مجرد ضبط للنفس، ولا

يلزمه الإغضاء عن الإساءة.

أما العفو فيقتضي تناسي الإساءة واعتبارها كأن لم تكن، وفي الحديث الصحيح:-

﴿وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا﴾

الإحسان

﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾:

أي: كلُّ الْمُحْسِنِينَ ويدخل فيهم، مَنْ تقدّم نكرهم. والحبُّ ميل القلب إلى المحبوب.

والمراد به - في الآية - ما يلزم عنه من الثواب والرضوان. والمعنى: أن الله يرضى عن المحسنين جميعاً، ويجازيهم على إحسانهم أحسن الجزاء.

والإحسان يشمل: إتقان العمل، والإتيان به على الوجه الأكمل ومنه قول الرسول ﷺ وقد سئل عن الإحسان:-

﴿أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ﴾

ويشمل أيضاً: إيصال النفع إلى الغير، ودفع الضرر عنه، ولا يكمل الإحسان حتى يكون خالصاً لوجه الله، لا ينتظر المحسن مكافأة عليه ولا يكون مكافأة على إحسانٍ سابقٍ وصل إليه.. وفي الحديث الشريف:-

﴿لَيْسَ الْوَاصِلُ بِالْمُكَافِي﴾

والمراد بالواصل: المحسن.

ولمكانة الإحسان عند الله ﷻ، أثنى عليه بأعلى أنواع الثواب وهو محبته (سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى) كما قال في ختام الآية: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾. ((انتهى)).

إنَّ حالة الاعتدال في كل تعاملات الإنسان الحياتية تجعله في حالة توازن في جميع علاقاته الاجتماعية، والقرآن الكريم يؤكد دائماً على موضوع الوسطية في التعاطي مع الآخرين ومن هذه التعاليم التي تؤكد على حالة الوسطية الآية الكريمة (٢٩) من سورة الإسراء المباركة، وقد تناولنا في تفسيرنا: (البيان والتبيان في تفسير وتنزيل القرآن) ج/١٣/ص ٢٠٠، وما بعدها، تفسير الآية المذكورة أعلاه، فقلنا:

((وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾

أمرنا الله فيما تقدم بالإففاق في البرِّ، جاءت هذه الآية ليُعَلِّمَنَا اللهُ ﷻ أدب إففاق المال، فهانا (سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى) عن البخل والشحِّ وعن الانطلاق في البذل.

والمعنى: ولا تجعل يدك كالمغلولة الممنوعة بالغُلِّ عن الانبساط في الإففاق، بل تعودِّ بسط اليد والسخاء والجود حتى لا يلومك ويعتبَ عليك أهلُك، ويذمُّك مَنْ يعرفك من أصحابك وعشيرتك، ويملكُ أهلُك وولدك ويتمنَّوا هلاكك، ولا تُسْرِفْ في الإففاق وتتجاوز الحدَّ، فتكونَ كَمَنْ بسطَ يده ونشرها فضاع ما كان

فيها من مال بل تدبر أمر مستقبلك أنت ومن تعول حتى لا تضيعهم فترجع ملوماً من الله ﷻ ومن الناس ومن نفسك، إذا احتجت كما تصير بهذا الإسراف قليلاً منقطعاً كالذي بلغ الغاية في التعب والإعياء، فلم يستطع مواصلة سيره، فعليك أن تكون وسطاً بين الإفراط والتفريط، متصفاً بصفات عباد الرحمن الذين قال الله فيهم: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾^(١).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾^(٢):

أي: إن بسط الرزق وتوسعته وقبضه ليس لك ولا هو من شأنك أيها المربوب الضعيف الذي لا تعلم أمر نفسك وما يصلحها، ولا تقدر من غير معونة ربك، فهو الذي يبسط الرزق لمن يشاء ويضيِّقه، وأنت مأمور منه سبحانه أن تكون معتدلاً في الإنفاق في حالتك الفقر والغنى، وأن تسعى في سبيل رزقك، والله يُعينك في سعيك إنه كان بعباده خبيراً بصيراً، يُعطي عباده حيثما جرت به مشيئته وحكمته فمن حكمته تعالى أن يُغايِر بين الناس في الفقر والغنى، ليستقيم أمر الحياة وينتظم شأنها، فطائفة تُيسرُ لعملٍ، وثانية تُسخرُ في آخر، وهكذا يُيسرُ الله كلاً لما خلق له فتفسير

(١) سورة الفرقان/آية/٦٧.

(٢) سورة الإسراء/آية/٣٠.

الحياة ويستقيم أمر الخلق ولو جعل الله الناس على حالٍ واحدةٍ لاخْتَلَّ النظامُ وفسد وانتهى أمر الخلق إلى فوضى، وتعطلت جوانب كثيرة من حياة الناس.

إنَّ معيار التفاضل في الميزان القرآني بين أبناء البشر توضحه الآية الكريمة (١٣) من سورة الحجرات، وقد فصلنا تفسير هذه الآية المباركة في تفسيرنا: (البيان والتبيان في تفسير وتنزيل القرآن) ج٣٨/ص٥٨، وما بعدها، فقلنا ما يلي:-

((يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ))

بعد أن ذكر الله ﷻ تلك الآداب السامية التي حفلت بها هذه السورة، ختمها بلون من الأدب العالي، وهو تعليم عباده أن لا كرم ولا شرف عند الله إلا بالتقوى كيفما كانت الأوصاف والأسباب، حتى لا يتعالى بعضهم على بعضٍ بغير حقٍّ، فكلُّ الناس من آدم وحواء، فلا وجه للتعالى بالأحساب والأسباب، ليظلَّ الناس إخوة متواضعين متحابين.

بين طاووس والإمام

يقول الفقيه المشهور طاووس عن الإمام زين العابدين عليه السلام:
((رَأَيْتُهُ يَطُوفُ مِنَ الْعِشَاءِ إِلَى السَّحَرِ وَيَتَعَبَّدُ فَلَمَّا لَمْ يَرَ أَحَدًا رَمَقَ السَّمَاءَ بِطَرْفِهِ وَقَالَ:-

﴿إِلَهِي غَارَتْ نَجُومُ سَمَاوَاتِكَ وَهَجَعَتْ عِيُونَ أَنَامِكَ
وَأَبْوَابِكَ مُفْتَحَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ جَنَّتِكَ لِتَغْفِرَ لِي وَتَرْحَمَنِي
وَتُرِينِي وَجَهَ جَدِّي مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ﴾

ثُمَّ بَكَى، وَقَالَ:-

﴿وَعَزَّتْكَ وَجَلَالُكَ مَا أَرَدْتُ بِمَعْصِيَتِي مُخَالَفَتَكَ، وَمَا
عَصَيْتُكَ إِذْ عَصَيْتُكَ وَأَنَا بِكَ شَاكٌ، وَلَا بِنِكَالِكَ جَاهِلٌ،
وَلَا لِعَقُوبَتِكَ مُتَعَرِّضٌ، وَلَكِنْ سَوَّلْتُ لِي نَفْسِي، وَأَعَانَنِي
عَلَى ذَلِكَ سَتْرَكَ الْمُرْخَى بِهِ عَلَيَّ، فَأَنَا الْآنَ مِنَ عَذَابِكَ
مَنْ يَسْتَنْقِذُنِي، وَيَحْبِلُ مَنْ أَعْتَصِمُ إِنْ قَطَعْتَ حَبْلَكَ عَنِّي،
فَوَاسِوَاتَاهُ عُدَاؤُا مِنَ الْوُقُوفِ بَيْنَ يَدَيْكَ، إِذَا قِيلَ لِّلْمُخْفِيِّينَ
جُورُوا وَلِلْمُثْقَلِينَ حُطُّوا، أَمَعَ الْمُخْفِيِّينَ أَجُورٌ، أَمْ مَعَ
الْمُثْقَلِينَ أَحَطُّ، وَيَلِي كَلَّمَا طَالَ عُمُرِي كَثُرَتْ خَطَايَايَ وَلَمْ
أَتُبْ، أَمَا أَنْ لِي أَنْ أَسْتَعِي مِنْ رَبِّي﴾

ثُمَّ بَكَى، ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ:-

﴿أَتَحْرِقُنِي بِالنَّارِ يَا غَايَةَ الْمُنَى
فَأَيْنَ رَجَائِي ثُمَّ أَيْنَ مَحَبَّتِي
أَتَيْتُ بِأَعْمَالٍ قَبَاحٍ رَدِيَّةٍ
وَمَا فِي النُّورِ خَلْقَ جَنَى كَجِنَايَتِي﴾

ثُمَّ بَكَى، وَقَالَ:-

﴿سُبْحَانَكَ تَعْصَى كَأَنَّكَ لَا تَرَى، وَتَحْلُمُ كَأَنَّكَ لَمْ تَعْمَ،
تَتَوَدَّدُ إِلَى خَلْقِكَ بِحُسْنِ الصَّنِيعِ، كَأَنَّ بِكَ الْحَاجَةَ إِلَيْهِمْ

﴿ وَأَنْتَا يَا سَيِّدِي الْغَنِيُّ عَنْهُمْ ﴾

ثُمَّ خَرَّ إِلَى الْأَرْضِ سَاجِداً.. قَالَ فَدَنَوْتُ مِنْهُ وَشَلْتُ رَأْسَهُ
وَوَضَعْتُهُ عَلَى رُكْبَتِي، وَبَكَيْتُ حَتَّى جَرَّتْ دُمُوعِي عَلَى خَدِّهِ..
فَاسْتَوَى جَالِسا، وَقَالَ:-

﴿ مَنْ ذَا الَّذِي أَشْفَلَنِي عَنِ ذِكْرِ رَبِّي؟! ... ﴾

فَقُلْتُ: أَنَا طَاوُوسٌ يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ، مَا هَذَا الْجَزَعُ
وَالْفَزَعُ؟! ... وَتَحَنُّنٌ يَلْزِمُنَا أَنْ نَفْعَلَ مِثْلَ هَذَا وَتَحَنُّنٌ عَاصُونَ جَافُونَ.
[وَأَنْتَ] أَبُوكَ الْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ، وَأُمُّكَ فَاطِمَةُ الزَّهْرَاءُ، وَجَدُّكَ رَسُولُ
اللَّهِ! ... قَالَ: فَالْتَفَتَ إِلَيَّ، وَقَالَ:-

﴿ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ، يَا طَاوُوسُ دَعِ عَنِّي حَدِيثَ أَبِي وَأُمِّي
وَجَدِّي، خَلَقَ اللَّهُ الْجَنَّةَ لِمَنْ أَطَاعَهُ وَأَحْسَنَ وَتَوَكَّأَ عَبْدًا
حَبَشِيًّا، وَخَلَقَ النَّارَ لِمَنْ عَصَاهُ وَتَوَكَّأَ سَيِّدًا قَرَشِيًّا، أَمَا
سَمِعْتَ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ
بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾^(١)، وَاللَّهُ لَا يَنْفَعُ غَدًّا إِلَّا
تَقَدِّمَةُ تَقَدِّمَهَا مِنْ عَمَلٍ صَالِحٍ ﴾^(٢)

وعقب الله خلقه للناس من ذكر وأنتى بقوله: ﴿ وَجَعَلْنَاكُمْ

شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾^(٣) والشعوب: جمع شُعب، بفتح وسكون.

والشُّعب ما تشعبت منه القبائل، فالعرب، شُعب، وقبائله مثل

(١) سورة المؤمنون/آية/١٠٢.

(٢) مناقب آل أبي طالب: ٤/١٥٢.

(٣) سورة الحجرات/آية/١٣.

ربيعة ومُضَرَّ والأوس والخزرج، وقد يُطَلَقُ الشَّعْبُ عَلَى الْقَبِيلَةِ الْعَظِيمَةِ، وَقَدْ جَعَلَهُمُ اللَّهُ كَذَلِكَ لِيَتَمَايَزُوا وَيَتَعَارَفُوا، كَأَن يَقُولُ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ: أَنَا مِنَ الْقَبِيلَةِ الْفُلَانِيَّةِ.

وَلَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ الشُّعُوبَ وَالْقَبَائِلَ تَتَّخِذُهَا أَمَاكِنَ مُسْتَقَلَّةً، لِيَزِدَادَ التَّعَارُفَ بَيْنَ النَّاسِ بِذِكْرِ الْمَكَانِ، وَقَدْ كَانَ النَّاسُ -عَرَبِيًّا أَوْ عَجَمًا- عِنْدَ نَزُولِ الْآيَةِ قَبَائِلَ مُتَمَايِزَةً، ضَمِنَ شُعُوبَ تَعَمُّهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ الْآنَ فِي مَعْظَمِ الْأُمَمِ، قَدْ اخْتَلَطَ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ، وَأَصْبَحَ التَّعَارُفُ بَيْنَهُمْ بِالِاتِّمَاعِ إِلَى الْأُمَمِ، وَبَيَانَ الْبُلْدَانِ الَّتِي يَعِيشُونَ فِيهَا وَالْمَسَاكِنِ الَّتِي يَأْوُونَ إِلَيْهَا.

وَعَقَّبَ اللَّهُ ﷻ هَذِهِ الْجُمْلَةَ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّا أَكْرَمَكُمُ عِنْدَ اللَّهِ اتِّقَاكُمْ﴾^(١) لِيُبَيِّنَ أَنَّ التَّقْوَى هِيَ الْأَمْرُ الْمُرَاعَى عِنْدَ اللَّهِ، وَلَيْسَ الْحَسَبَ وَالنَّسَبَ وَالْمَالَ وَالْوِظْفَةَ.

وَقَدْ خَتَمَ اللَّهُ الْآيَةَ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّا اللَّهُ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾^(١)، أَي: أَنَّهُ تَعَالَى عَلِيمٌ خَبِيرٌ بِأَحْوَالِ النَّاسِ نَحْوِ هَذِهِ الْآدَابِ، فَيُثِيبُ مَنْ تَأَدَّبَ بِهَا، وَيُعَاقِبُ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهَا. ((انتهى)).

لَقَدْ حَثَّ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ عَلَى مَفْهُومِ التَّعَاوُنِ عَلَى أَسَاسِ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ، فَهَذَا التَّعَاوُنُ الْإِجَابِيُّ الْمَحْكُومُ بِضَوَابِطِ إِيمَانِيَّةٍ وَإِنْسَانِيَّةٍ، لَهُ آثَارٌ إِجَابِيَّةٌ تَنْعَكِسُ عَلَى الْعِلَاقَاتِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ بِصُورَةٍ عَامَّةٍ، لَقَدْ تَنَاوَلْنَا تَفْسِيرَ الْآيَةِ الثَّانِيَّةِ مِنْ سُورَةِ الْمَائِدَةِ الْمُبَارَكَةِ فِي

(١) سورة الحجرات/آية/١٣.

تفسيرنا: (البيان والتبيين في تفسير وتنزيل القرآن) ج ٤٠ / ص ١٠٦

وما بعدها، فذكرنا ما يلي:-

((قوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾**^(١)))

لَمَّا بَيَّنَّ اللَّهُ ﷻ حُرْمَةَ الاصْطِيَادِ فِي الْإِحْرَامِ، عَقَبَ ذَلِكَ بِنَهْيِ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ اسْتِحْلَالِ شَعَائِرِ اللَّهِ ﷻ، وَمَعَالِمِ حُدُودِهِ فَقَالَ:-

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ...﴾

هَذَا نِدَاءٌ ثَانٍ مِنَ اللَّهِ ﷻ لِلْمُؤْمِنِينَ، بِقُوَّةِ النِّدَاءِ السَّابِقِ بِالْوَفَاءِ بِالْعُقُودِ لِنَسَاوِي الْحُكْمِينَ وَجُوبًا، أَي: لَا تَسْتَبِيحُوا وَتَنْتَهِكُوا أَيَّةَ شَعِيرَةٍ مِنْ شَعَائِرِ الدِّينِ فِي الْحَجِّ أَوْ غَيْرِهِ، لِأَنَّهُ يُؤَدِّي إِلَى الْاسْتِخْفَافِ بِالشَّرْعِ، وَذَلِكَ كُفْرٌ بِاللَّهِ ﷻ، لِأَنَّهُ هُوَ الْمُشْرَعُ.

﴿وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾

أَي: وَلَا تَسْتَبِيحُوا وَتَسْتَحِلُّوا الْقِتَالَ فِي الْأَشْهُرِ الْحُرْمِ، وَذَلِكَ لِحُرْمَةِ الْقِتَالِ فِيهَا، إِلَّا إِذَا اضْطُرَرْتُمْ إِلَى ذَلِكَ، فَإِنَّهُ لَا يَحْرُمُ عَلَيْكُمْ الْقِتَالَ فِيهَا، قَالَ تَعَالَى:-

(١) سورة المائدة/آية/٢.

﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتِ قِصَاصٌ...﴾^(١)

والأشهر الحرم هي (كما قدّمنا): ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرّم ورجب.

﴿وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ﴾:

كذلك نهام أيضاً، عن أن يعتدوا على الهدّي، الذي يُهدى إلى الحرم من الأنعام، لينتفع به عبادة الله، أو أن يعتدوا على ما قلّد من هدي الأنعام، فجعلت به علامة للدلالة على أنه مُهدى إلى بيت الله، وذلك بقوله تعالى: ﴿وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ﴾: وخصّ القلائد بالنهاي عن الاعتداء عليها (مع أنها داخلة في الهدّي) تشريفاً لها، واعتناءً بها.

والمراد من إحلال الهدّي والقلائد المنهي عنه غضبها، أو منعها من بلوغ محلّها، أو إصابتها بسوء.

وذهب بعضُ المُفسّرين إلى أنّ المعنى: لا تتركوا عبادة الإهداء إلى البيت الحرام، فإنّ فيه تعظيم شعائر الله ﷻ، ولا تتركوا تقليدها في أعناقها لتُعرف به عمّا عداها من الأنعام، وليُعلم أنّها هديّ إلى الكعبة، فيجتنبها من يُريدها بسوء، وتبعث من يراها على الإتيان بمثلها.

ونهى الله ﷻ أيضاً، عن أن يتعرّضوا لقاصدي البيت الحرام بسوء، فقال:-

(١) سورة البقرة/آية/١٩٤.

﴿وَلَا آمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾:

وذلك لأنهم إنما قصدوا أداء المناسك، وابتغاء فضل الله ﷻ ورضوانه.

وهذه المنهيات كلها، دليل على أن الله يُوجب أن يكون زمان الحجِّ ومكانه، وقاصده والبيت الحرام وما يُهدى إليه (كلُّ ذلك) في أمن واطمئنان، فلا خوف ولا اضطراب في أداء هذه الفريضة.

وتكرار ﴿لَا﴾ أربع مرات في: ﴿وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾، ﴿وَلَا الْهَدْيِ﴾، ﴿وَلَا الْقَلَائِدَ﴾، ﴿وَلَا آمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ﴾، للدلالة على أن قوَّة التحريم في كلِّ واحدة.

ونكرُ كلِّ واحدةٍ من هذه المنهيات الخمس منفردة، مع أنها مُجملة في ﴿شَعَائِرِ اللَّهِ﴾، لأهميتها.

﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾:

أي: وإذا تحللتُم أيُّها المؤمنون، من إحرامكم وخرجتُم من أرض الحَرَمِ، فقد أحلَّ لكم الاصطياد والانتفاع بالمصيد، كما تشاءون، فإنما حرِّم عليكم الصيد (في أرض الحَرَمِ) سواء كنتم مُحرمين أو مُحلِّين، وكذلك حرِّم عليكم الصيد في حال الإحرام (مطلقاً) في أيِّ أرضٍ تكونون.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ

الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا﴾:

أي: ولا يحملنكم بغضكم للمشركين (بسبب صدِّهم إياكم) عن

أداء العمرة عام الحُدَيْبِيَّةِ بغير حقٍّ، لا يَحْمِلَنَّكُمْ هذا البُغْضُ على الاعتداء عليهم بغير حقٍّ، وهذا من عدالة الإسلام وَسَمَاحَتِهِ، فهو يكره الاعتداء دائماً.

﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾:

أَتَّبَعَ اللهُ ﷺ النهيَ عن العدوان، بالأمر بالتعاون على البرِّ والتقوى، وكلُّ ما فيه خير وصلاح للفرد والمجتمع.

﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾:

نهى (سُبْحَانَهُ) عن التعاون على المعاصي والمُنْكَرَاتِ، وكلُّ ما فيه إضرار بمصالح الأفراد والجماعات.. وعقب تلك النواهي بالتحذير من مخالفتها، فقال:-

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾:

أي: ولتكن تقوى الله (دائماً) والخشية منه ماثلة أمام أعينكم في كلِّ ما تأتون وما تتركون، فراقبوه دائماً في جميع أعمالكم، ومن أهمها: تنفيذ ما أمرتم به، وترك ما نهيتم عنه، واحذروا شديد عقابه، وأليم عذابه، على المخالفة والعصيان. ((انتهى)).

القرآن الكريم أكد بصورة مباشرة، وفي الكثير من المواضع على أهميَّة صِلَةِ الرَّحْمِ، وتأتي الآية المباركة (٧٥) من سورة الأنفال في سياق تأكيد هذه الصلَّة وقد بحثنا هذا الموضوع في تفسيرنا للآية (٧٥) من سورة الأنفال المباركة، فقد اقتبسنا

الصفحات التالية من تفسيرنا: (البيان والتبيان في تفسير وتنزيل القرآن) ج/٣٠ ص/١٩٣، وما بعدها، فذكرنا ما يلي:

(قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ﴾:

أي: والذين آمنوا وهاجروا من بعد هجرة الرسول إلى المدينة كالذين هاجروا بعد بيعة الرضوان في الحديبية، ثم جاهدوا معكم، فهؤلاء من جماعتكم أيها المهاجرون، فلهم مثلكم حق النصر والموالاة، وقد رفع عنهم إثم التأخر في الهجرة. وبقي وجوب الهجرة على المسلمين حتى فتحت مكة، قال (صلى الله عليه وآله وسلم):-

﴿لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ، وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ﴾

وهذا عندما يكون المسلم آمناً على عقيدته، فإن خاف الفتنة وجبت عليه الهجرة إلى مكان يأمن فيه على نفسه وأهله ودينه وماله. ﴿وَأُولَئِكَ الْأَرْحَامُ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾:

أي: وأصحاب القرابات، بعضهم أحق ببعض في التوارث بالقرابة وبذلك النص انتهى حكم التوارث بالمواخاة والحلف والمعاهدة والتبني، وثبت حكم التوارث بالقرابة.

﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾:

أي: أن علمه تعالى محيط بكل شيء، وفي جملة ذلك امتثال المؤمنين وتنفيذهم أمر الله بالتوريث بالقرابة، أو مخالفتهم له،

فيُثيب الأولين ويعاقب الآخرين.

وذكرَ عليُّ بن إبراهيم القمي في تفسيره حول الآية خبراً، فقال: ((فإنَّ الحُكْمَ كان في أوَّل النبوة أنَّ الموارِيث كانت على الأخوة لا على الولادة، فلما هاجر رسولُ اللهِ ﷺ إلى المدينة آخى بين المهاجرين وبين الأنصار، فكان إذا مات الرجل يرثه أخوه في الدين، ويأخذ المال وكان ما ترك له دون ورثته، فلما كان بعد بدر أنزل اللهُ ﷻ:-

﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا....﴾^(١)

فنسخت آية الأخوة بقوله:-

﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾

((قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾

بعد أن أمر اللهُ ﷻ نبيه ﷺ باتِّباع ملة إبراهيم حنيفاً، بين له في هذه الآية طريق الدعوة إليها.

والمعنى: ادْعُ أيها الرسولُ، جميع المُكَلَّفِينَ الذين بُعِثتَ إليهم،

(١) سورة الأحزاب/آية/٦.

ادعهم إلى الإسلام، بالحجج المزيلة للشبهة الموصلة إلى اليقين، وبالنصائح الجميلة المرغبة في الحق والخير، المنفردة من الباطل والشر، ومن جادلهم فأحسن طرق المراجعة والمجادلة، أي باللين والرفق، كما راجع إبراهيم أباه وقومه، وكما حاج الطاغية الذي آتاه الله الملك.

وإنما لم يقل: ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن، لأنّ الجدال ليس طريقاً أصيلاً في الدعوة إلى الله ﷻ، وإنما يكون عند المراجعة والمحاورة بقصد إظهار الحق والرجوع إليه والطمأنينة به، لا لقصد إفحام الخصم وغلبته، كما يتبع ذلك بين أهل الجدل والخصومة.

ذلك بأنّ منهج القرآن الحكيم في دعوته وهدايته، قائم على الحجج القاطعة والنصائح الرشيدة الهادية في كل ما دعا إليه، وما جاء به من وحدانيته تعالى وقدرته، وبعثه الناس ليوم لا ريب فيه، ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تَجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوْفَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾^(١)

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾:

هذا إعلام من الله (تبارك وتعالى)، بأن ليس على الرسول إلاّ البلاغ بالطريقة التي بيّنها له، فأما ما وراء ذلك من حصول الهدى

(١) سورة النحل/آية/١١١.

والضلال والجزاء عليهما، فالى الله ﷻ وحده، فإنه العليم بمن يبقى على الضلال، وهو العليم بمن يهتدي إلى ربه، فيجازي كلاً بما يستحقه، طبقاً لما اختاره لنفسه.

وتقديم الضالين في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾، لأنَّ الكلام فيهم، وإيراد الضلال بصيغة الفعل الدال على الحدوث، لأنَّ الضلال تغيير لفطرة الله التي فطر الناس عليها، وذلك أمر عارض، بخلاف الاهتداء فإنه ثابت على الفطرة، فلذا جيء به على صيغة الأسم المُنْبئ عن الثبات، ولا يخفى ما في التعرُّض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ)، من اللطف والعناية.)) (انتهى).

الفصل الأول

المبحث الرابع

مبحث في أحاديث المعصومين (عليهم السلام)

مبحث في أحاديث المعصومين (عليهم السلام)

تُعتبر مدرسة أهل البيت (عليهم السلام) النور الثاني، بعد القرآن الكريم، هذا النور المبارك يُفسر للمؤمنين ما هو غامض أو غير واضح أو مُلتبس عندهم من أحكام أو آداب أو عبادات أو غير ذلك من الأمور الإيمانية المختلفة.. وفيما يلي باقة عطرة من الأحاديث المباركة للمعصومين (عليهم السلام) التي تُعضد ما طرِح من مواضيع في هذا الفصل من الكتاب، وقد اقتبسنا من موسوعتنا الحديثية:

(موسوعة الفقيه الصدر للأربعين حديثاً)، الأحاديث التالية:

- ١- حديث بالعقل نعرف النفس رقم ١ الجزء ١/
- ٢- حديث إفشاء السلام من صفات الكرام رقم ٣٨ الجزء ١٧/
- ٣- حديث استقامة مشروطة رقم ١٥ الجزء ١١/
- ٤- حديث مقياس الإيمان رقم ١١ الجزء ٢٠/
- ٥- حديث للعبادة وسائل مختلفة رقم ٤٠ الجزء ١٢/
- ٦- حديث ثلاثة يدفعون العذاب رقم ٢٢ الجزء ١٦/
- ٧- حديث للخير وجوه رقم ٤ الجزء ٥/

بالعقل.. نعرف النفس

وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ:-

﴿أَفْضَلُ الْعَقْلِ مَعْرِفَةُ الْمَرْءِ نَفْسَهُ، فَمَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ

عَقْلًا، وَمَنْ جَهَلَهَا ضَلَّ﴾

وهنا لابدّ من الإشارة والتأكيد على تلازم العقل مع المعرفة،
لأنّه لا يمكن أن يصل الإنسان إلى معرفة نفسه من دون عقله،
ومن دون استعمال العقل، ومن دون حتّى العقل على المعرفة بكل
أنواعها، وبرمجة العقل للسير في طريق المعرفة.

ومن هنا كان العقل من أكبر ميزات الإنسان، ومن هنا كان
العقل هو أساس في الثواب والعقاب، ومن هنا كان العقل كما وردَ
في الحديث القدسي عندما خَلَقَ اللهُ العقل، وجعله في الإنسان وقال
له:-

﴿أَقْبِلْ﴾

فَأَقْبِلْ..

وقال له:-

﴿أَذْبِرْ﴾

فَأَذْبِرْ..

فقال ربُّ العزّة والجلال:-

﴿بِكَ أَثِيبُ وَبِكَ أَعاقِبُ﴾

إذن فدور العقل هو الدور الأساس لمعرفة النفس كما هو له
الدور الأساس في معرفة كلّ المعارف، ولكن باعتبار أنّ معرفة
النفس هو أساس المعارف، فللعقل الدور الأكبر في معرفة النفس.
ولهذا كان هو الأساس في معرفة النفس، وكان هو النتيجة
بعد معرفة النفس، أما هو الأساس فلا يمكن أن يصل الإنسان إلى

معرفة أي شيء وخصوصاً نفسه إلا باستعمال عقله.
وأما هو النتيجة، فهو أنّ الإنسان لو عرف نفسه، فيكون
أعقل الناس!... لأنه لو عرف نفسه، هذه المعرفة تُكوّن له مقاييس
سليمة، وهذه المعرفة تُكوّن له أسس صحيحة للتفكير، ولذلك يكون
قد عقل، ولهذا نرى في الحديث الشريف:-

﴿فَمَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَقِلَ﴾

لأنه عرف نفسه من بدايتها واستمرارها ونهايتها، عند ذلك
عقل.. استعملها ضمن الحكمة التي من أجلها وُجدت وُخِلِقَتْ.

﴿وَمَنْ جَهِلَهَا ضَلَّ﴾

والذي يجهل نفسه، يجهل حكمة وجود هذه النفس، وخلق
هذه النفس، ويجهل مهمة هذه النفس، عند ذلك يتخبّط تخبّط
عشواء.. عند ذلك يكون لا قصد له.. عند ذلك يجهل نفسه، ويجهل
غايته، ويجهل ما هو له وما هو عليه، يجهل واجباته ويجهل
مسئوليته، وهذا تعبير عن الضلال.

إفشاء السلام.. من صفات الكرام

قال الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام:-

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ إِفْشَاءَ السَّلَامِ﴾

إفشاء السلام.. ويعني إظهار ونشر السلام والأمان بين
الناس، بمختلف أشكال السلام.. من إلقاء تحية السلام، وإصلاح
النفس، والإصلاح بين الناس..

وإفشاء السلام من صفات كرام النفوس، ومن المزايا التي يُحِبُّها الله، وَيُحِبُّ مَنْ يَتَخَلَّقُ بِهَا مِنْ عِبَادِهِ.

والسلام، من أسماء الله الحسنى، فالله ﷻ هو (السلام المؤمن المهيمن).. وقد ذكرنا، أنّ واحدة من أشكال، إفشاء السلام، هي إلقاء تحية السلام.

إنّ لتحية السلام، آداب خاصة في الإسلام، يُحَافِظُ مِنْ خِلَالِهَا عَلَى حَقُوقِ الْأَفْرَادِ غَايَةَ الْمَحَافِظَةِ، وَيُرِيدُ بِالنَّاسِ لِيَكُونُوا شَاكِرِينَ مُقَدِّرِينَ بَعْضَهُمْ حَقُوقِ الْبَعْضِ الْآخِرِ، فَالَّذِي يُسَلِّمُ أَوَّلًا هُوَ ذُو حَقٍّ وَفَضْلٍ، فَيَنْبَغِي أَنْ يُجَازَى بِأَحْسَنِ مِمَّا أَتَى بِهِ، وَهَذَا مَا يُقَرِّهُ الْعَقْلُ الْمِتَكَامِلُ وَيَأْمُرُ بِهِ الدِّينُ الْإِسْلَامِيُّ.. قَالَ اللَّهُ ﷻ فِي سُورَةِ النِّسَاءِ/آيَةِ ٨٦:-

﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنٍ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾

عن ابن عباس، في تفسير هذه الآية، قال: ((إذا قال المسلم: السلام عليكم، فقلت: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، فقد حيَّيته بأحسن منها، وهذا منتهى السلام)). وإلقاء تحية السلام، من سمات التواضع ضد التكبر، والذي هو أكبر مصاديق الكفر بالله ﷻ.. قال الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام:-

﴿مِنَ التَّوَاضُّعِ أَنْ تُسَلِّمَ عَلَى مَنْ لَقِيتَ﴾

استقامة مشروطة

يقول النبيُّ الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم):-

﴿إِذَا أَصْبَحَ ابْنُ آدَمَ، أَصْبَحَتِ الْأَعْضَاءُ كُلُّهَا تَكْفُرُ اللِّسَانَ،
فَتَقُولُ لِّلْسَانَ: اتَّقِ اللَّهَ فِينَا، فَإِنَّمَا نَحْنُ بِكَ، فَإِنِ
اسْتَقَمَّتْ اسْتَقَمْنَا، وَإِنِ اعْوَجَجَتْ اعْوَجَجْنَا﴾

ويقول الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام الذي هو من مدرسة أهل البيت، ومدرسة رسول الله صلى الله عليه وآله والقرآن:-

﴿إِن لِّسَانَ ابْنِ آدَمَ يُشْرِفُ كُلَّ يَوْمٍ عَلَى جَوَارِحِهِ، فَيَقُولُ:
كَيْفَ أَصْبَحْتُمْ؟...﴾ (أي: يسأل الجوارح: كيف
أصبحتم؟.. فتجيبه الجوارح) فَيَقُولُونَ: بِخَيْرٍ، إِنِ
تَرَكْنَا، وَيَقُولُونَ: اللَّهُ اللَّهُ فِينَا، وَيُنَاشِدُونَهُ وَيَقُولُونَ
إِنَّمَا نُنَابُ وَنُعَاقِبُ بِكَ﴾^(١)

التوجيه النبوي للأمة، للناس جميعاً، لأبناء آدم جميعاً،
فأعضاء الإنسان كلها تنادي اللسان:-

﴿اتَّقِ اللَّهَ فِينَا﴾

فَبِكَ نَدْخُلُ الْجَنَّةَ وَبِكَ نَدْخُلُ النَّارَ.. فَبِكَ النِّعَمَ وَبِكَ الْهَلَاكَ..
فَبِكَ الْخَيْرَ وَبِكَ الشَّرَّ.. فَبِكَ السَّعَادَةَ وَالْإِطْمِنَانَ وَبِكَ الْقَلْقَ
وَالْإِضْطِرَابَ، ولهذا تأمره:-

﴿اتَّقِ اللَّهَ فِينَا﴾

فإنما نحن بك، سعادتنا مرتبطة بك، دنيانا مرتبطة بك، بما
تقول.. وآخرتنا مرتبطة بك، بما تقول.. ولهذا إذا استقمت فيما
تقول وقلت ما يرضي الله تعالى، استقمنا جميعاً (نحن أعضاء البدن)،

(١) ميزان الحكمة/محمد الريشهري/ج/٤/ص/٢٧٨٠.

وإن اعوججتَ فيما تقول، وإن انحرفتَ وأخطأتَ وعصيتَ وابتعدتَ،
ابتعدنا جميعاً (نحن أعضاء البدن) ونكون جميعاً عاصين خاطئين
مذنبين.

الصورة الأولى: كانت الجوارح تتحدث مع اللسان وتقول له:-

﴿اتَّقِ اللَّهَ فِينَا، فَإِنَّمَا نَحْنُ بِكَ، فَإِنِ اسْتَقَمَّتْ اسْتَقَمْنَا،
وَإِنِ اعْوَجَجَتْ اعْوَجَجْنَا﴾

الصورة الثانية: اللسان هو يتكلم مع الجوارح، فيقول لها:-

﴿كَيْفَ أَصْبَحْتُمْ؟!... (أي: يسأل الجوارح: كيف
أصبحتم؟!... فتجيبه الجوارح) فَيَقُولُونَ: بِخَيْرٍ، إِن
تَرَكْنَا﴾

نحن بخير إن تركتنا من سوء كلامك، من سوء ما تقول، من
سوء لفظك.. إن تركتنا من معاصيك، ممّا تلفظ من كذب وغيبة
ونميمة وبهتان، ممّا تقوله من غلط فكري أو عملي ﴿إِنَّمَا نَحْنُ بِكَ
وَنُعَاقِبُ بِكَ﴾

فهو مصدر الاتنين، مصدر الخير ومصدر الشر، ولهذا نرى
الصحابي الجليل والتلميذ العزيز لرسول الله ﷺ أبا ذر الغفاري رضي الله عنه
يقول: ((يا مُبْتَغِي الْعِلْمِ إِنَّ هَذَا اللِّسَانَ مِفْتَاحُ خَيْرٍ وَمِفْتَاحُ شَرٍّ،
فَاخْتَمِ عَلَى لِسَانِكَ كَمَا تَخْتَمُ عَلَى ذَهَبِكَ وَوَرِقِكَ))

فهو مصدر الخير والشر ولهذا لا بد من الالتفات إليه
والحرص عليه والمحاسبة له بشكل دائم وتربية مصدره الذي

يخرج منه الكلام وهو القلب الذي هو مرتبط مع الإيمان.. فلا بد أن ننزّه القلب حتى يقول اللسان ما هو سليم ولا بد أن نؤكد علاقة القلب مع الله ﷻ حتى يُعطي ما هو خير، ومن بديع ما يُقال قول الشاعر:

جِرَاحَاتِ السَّنَانِ لَهَا انْتِنَامٌ وَلَا يَلْتَنِمُ مَا جَرَحَ أَلْسَانُ

ف عندما يُطعن الإنسان برمح أو سكين، يُداوى.. أمّا الكلمة عندما تكون كلمة فاسدة، كلمة عاصية منحطة لا تلتئم إلاّ بإصلاح الأساس، بإصلاح القلب.. لأنّ اللسان مُترجم للداخل، فلربّ كلمة لفكرة ضالّة أحرقت المئات والآلاف، ولربّ كلمة لاندفاع سيئ أراقت الدماء والدماء.. ولهذا نرى أنّ التربية القرآنية للأمة تؤكّد على مسألة اللسان وأهميّة اللسان وضرورة الالتفات إليه التفاتاً دقيقاً كاملاً وعدم تركه بدون سيطرة ويجب عدم الهذيان، يقول (تعالى) في سورة ق/آية/(١٧-١٨):-

﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشَّمَالِ قَعِيدًا مَّا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾

ما هذه الأهميّة لهذا اللسان؟!... ما هذا الحجم الإلهي الذي يُعطيه لهذا اللسان؟!... ما هذه الرقابة الربّانية الصارمة لهذا اللسان؟!...!

والتعبير رائع -أيّها الأحبّة- فإنّهم يتلقّون ما تقول، فإنّهم يستمعون لما تقول، والتلقّي يعني أنّهم يظنّون بك خيراً، لأنّ التعبير

فيه منتهى الأخلاق والأدب والرحمة والشفقة!...
 فهم يتلقون منك، ومن هم؟... هم ملائكة رب العالمين!...
 أحدهم عن اليمين وأحدهم عن الشمال، يكتبون كل شيء تقوله
 وتلفظه.

الله ﷻ هو الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ولكن
 يكتبون كل ذلك لإتمام الحجة علينا!... لأننا غداً نقف بين يدي الله
 ونحاسب على كل قول وفعل، على كل كلمة ولفظ وحرف.

ولهذا فالملك أن يسجل ما يقوله الإنسان عن اليمين وعن
 الشمال، أما كيفية التسجيل، فالله أعلم، وما حصل في القرن
 العشرين من تطورات في العلم ووصول الإنسان إلى هذه الدرجات
 في العلم وعلمنا أشياء ما كنا نتصورها قبل سنين ولا تخطر ببالنا،
 فالإرادة الإلهية أقوى من كل ذلك!...

فهل يحفظون ما نقول أو يكتبون ما نقول؟!... أو أن الكلمة
 تبقى محفوظة في الجو وبعد ذلك تظهر لنا أو غير ذلك؟!... الله
 العالم..

ولكن نحن ما دُنا عبيد مؤمنين بالله ﷻ لا بد أن نُؤمن بما
 يقوله لنا، وعندما نُؤمن بما يقوله لنا، نُؤمن أن هناك ملائكة
 يكتبون ما نقول ويحفظون ما نقول.

مقياس الإيمان

سئل الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام عن الحب والبغض:

أَمِنَ الْإِيمَانَ هُوَ؟... فَقَالَ:-

﴿وَهَلِ الْإِيمَانُ إِلَّا الْعِبَادَةُ وَالْبُغْضُ فِي اللَّهِ؟...﴾

وقال أيضاً:-

﴿مَنْ لَمْ يُحِبَّ عَلَى الدِّينِ وَيُبْغِضْ عَلَى الدِّينِ، فَلَا دِينَ لَهُ﴾

إِنَّ حُبَّ الْإِنْسَانِ الْمُؤْمِنِ لِأَوْلِيَاءِ اللَّهِ، تَأْتِي تَأْتِي تَرْبِيَةً كَبِيرَةً عَلَى شَخْصِيَّتِهِ وَتَصَرُّفَاتِهِ.. فَالْحُبُّ فِي اللَّهِ يُوَدِّي إِلَى:

١-الانتقال من الأنانية إلى العطاء:

أي تربية النفس على نكران الذات والعطاء في سبيل الله وَمَنْ انتسب إليه (تعالى)، والمُحِبُّ تَتَلَقَّ مَشَاعِرَهُ بِالْمُحْبُوبِ فَيَسْعَى إِلَى إِرْضَائِهِ عَلَى حَسَابِ الذَّاتِ، بَلْ أَنَّهُ يَسْتَشْعِرُ اللَّذَّةَ فِي هَذَا اللَّوْنِ مِنَ الْعَطَاءِ، لِأَنَّهُ يَجِدُ فِيهِ مَتْنَفَسًا لِلتَّعْبِيرِ عَنِ مَشَاعِرِهِ الْعَمِيقَةِ، وَإِحْسَاسِهِ الصَّادِقِ الْكَامِنِ فِي نَفْسِهِ.. إِنَّ مَنْ أَحَبَّ اللَّهَ (جَلَّتْ قُدْرَتُهُ) أَوْ أَحَبَّ أَوْلِيَاءَهُ، بَدَلَ وَأَعْطَى كُلَّ مَا يَسْتَطِيعُهُ فِي سَبِيلِهِ (تعالى)، وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ عَنِ عِبَادِهِ يَضَاعَفُ لَهُمْ مَا بَدَلُوهُ، لِيَسْعَدُوا فِيهِ، يَوْمَ لَا يَنْفَعُ فِيهِ إِلَّا الْعَمَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﷻ.. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:-

﴿وَدُ الْمُؤْمِنِ لِلْمُؤْمِنِ فِي اللَّهِ مِنْ أَعْظَمِ شَعَبِ الْإِيمَانِ، إِلَّا وَمَنْ أَحَبَّ فِي اللَّهِ وَأَبْغَضَ فِي اللَّهِ وَأَعْطَى فِي اللَّهِ وَمَنَعَ فِي اللَّهِ، فَهُوَ مِنْ أَصْفِيَاءِ اللَّهِ﴾

٢-التضحية:

وهي من أهم المميزات التي تكسبها شخصية الإنسان المؤمن

بالحُبِّ في الله، فهي منبع كلِّ الخير في نفس المُحِبِّ لله.
 فالتضحية كلمة كبيرة وعمل عظيم، لكنها تقع ضمن مدرج
 واسع، يبدأ بالتنازل مثلاً عن وجبة فائضة عن الحاجة في سبيل
 الله، وينتهي ببذل الروح والنفس في سبيل الله.
 أيُّ عامل أو حافز يدفع الإنسان للتقديم والتضحية أقوى من
 الحُبِّ؟!... بل ليس الدافع لذلك إلا الحُبُّ في الله، إنه مفتاح السرِّ
 لتناغم القلوب ولاتحاد الأرواح، ولتصاغر كلِّ المُقتنيات التي يعتزُّ
 بها.. فالحُبُّ في الله، يُحرِّر شخصية الإنسان من كلِّ المكبوتات
 والتراكمات التي قد تولّدها مرور الأيام والسنين والأحداث.. كلُّ هذا
 الحُبِّ من أجل مَرَضاة الله ورُبه في الدار الآخرة.. قال الله ﷻ في
 سورة التوبة/آية/١١١:-

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمْ
 الْجَنَّةَ...﴾

وجاء في الحديث القدسي:-

﴿وعزتي وجلالي وعظمتي وبهائي وارتفاعي، لا يُؤثر
 عبدٌ مؤمنٌ هوايَ على هواه في شيء من أمر الدنيا، إلا
 جعلتُ غناه في نفسه وهمه في آخرته، وضمنتُ السماوات
 والأرضَ رزقه، وكنتُ له وراء تجارة كلِّ تاجر﴾

٣- تنبيه الذهن:

فالحبُّ يُنبه نكاء الإنسان ويوسّع آفاق تفكيره ويقوّي
 شخصيته، وهو بهذا الحُبِّ أقرب ما يكون إلى النبوغ أو العبقرية،

لأنه بالحب يرى أكثر ويفهم أكثر، كما تفهم الأم في ابنها وتعلم أكثر مما يفهم غيرها، وذلك للحب الذي تحس به نحوه، فالحب مفتاح المعرفة، ومفتاح الاستقامة، والمعرفة مفتاح الحب.

وعندما يتعرف الإنسان على الرسول ﷺ والأئمة (عليهم السلام) فإنه يحبهم، حينئذ يسعى لمعرفة المزيد عنهم، وإذا أحببهم أكثر سعى إلى إرضائهم، وبرضاهم تكون الاستقامة التي تقرب من الله ﷻ، قال الإمام جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام): -

﴿نَحْنُ الَّذِينَ فَرَضَ اللَّهُ طَاعَتَنَا لَا يَسَعُ النَّاسَ إِلَّا مَعْرِفَتُنَا
وَلَا يُعَدَّرُ بِنَهَائِنَا مَنْ عَرَفَنَا كَانَ مُؤْمِنًا، وَمَنْ أَنْكَرَنَا كَانَ
كَافِرًا، وَمَنْ لَمْ يَعْرِفْنَا وَلَمْ يَنْكَرْنَا كَانَ ضَالًّا حَتَّى يَرْجِعَ
إِلَى الْهُدَى الَّذِي افْتَرَضَ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنْ طَاعَتِنَا الْوَاجِبَةِ
فَإِنْ يَمُتْ عَلَى ضَلَالَتِهِ يَفْعَلِ اللَّهُ بِهِ مَا يَشَاءُ﴾

٤- إبعاد الخوف والشك:

فالشخصية المؤمنة المحبة في الله، شخصية منفتحة في تعاملها مع الآخرين، لا يعترئها الخوف من التعامل مع الناس، ولا الشك بدوافعهم وتصرفاتهم.. فالمحب لله شخص يألف ويؤلف، وهو يمتلك طاقة هائلة من الحب بحيث لا يحس بالحاجة إلى الناس في تبادل الحب، إلا في السياق العبادي الخاص به مع الله ﷻ.

لهذا فهو يبث الحب أينما حل، لا يخشى رداً خشناً، ولا يحذر مجافاة ونفوراً، فالمحب لله يحب الآخرين لأنهم عباد الله مثله، فإن تلقى نفوراً بادلته بالحب حتى يجتذب قلب المقابل إليه، وإن قوبل

بالحُبِّ لم يفرح إلا بما يُحقِّق رضا الله ﷻ به.. ومن ذا الذي ذاق حلاوة المحبَّة الإلهية فرامَ منها بدلاً.. قال رسول الله ﷺ: -

﴿إِنَّ اللَّهَ جَعَلَ قُلُوبَ عِبَادِهِ عَلَى حُبِّ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهَا وَبُغْضِ مَنْ أَسَاءَ إِلَيْهَا﴾

إِنَّ لِلْمُتَحَابِّينَ فِي اللَّهِ ﷻ مَنْزِلَةً كَبِيرَةً، وَشَرَفًا عَظِيمًا، وَمَقَامًا رَفِيعًا فِي الْآخِرَةِ، يَغْبِطُهُمْ عَلَيْهَا الْأَنْبِيَاءُ وَالْمَلَائِكَةُ.. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: -

﴿الْمُتَحَابُّونَ فِي اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى أَرْضٍ زَبْرَجْدَةٍ خَضْرَاءَ فِي ظِلِّ عَرْشِهِ عَنْ يَمِينِهِ وَكُنَّا يَدَيْهِ يَمِينٌ، وَجُوهُهُمْ أَشَدُّ بَيَاضًا وَأَضْوَاءَ مِنَ الشَّمْسِ الطَّالِعَةِ يَغْبِطُهُمْ بِمَنْزِلَتِهِمْ كُلُّ مَلِكٍ مُقَرَّبٍ وَكُلُّ نَبِيٍّ مُرْسَلٍ، يَقُولُ النَّاسُ: مَنْ هَؤُلَاءِ فَيَقَالُ هَؤُلَاءِ الْمُتَحَابُّونَ فِي اللَّهِ﴾

وقال أيضاً: -

﴿حُبِّي وَحُبُّ أَهْلِ بَيْتِي نَافِعٌ فِي سَبْعَةِ مَوَاطِنَ، أَهْوَالُهُنَّ عَظِيمَةٌ: عِنْدَ الْوَفَاةِ، وَفِي الْقَبْرِ، وَعِنْدَ النَّشُورِ، وَعِنْدَ الْكِتَابِ، وَعِنْدَ الْحِسَابِ، وَعِنْدَ الْمِيزَانِ، وَعِنْدَ الصِّرَاطِ﴾

للعِبَادَةِ.. وسائلٌ مختلفة

عن الإمام عليّ بن موسى الرضا عليه السلام، أنه قال:-

﴿ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ نَظَرُ الْوَالِدِ إِلَى وَالِدَيْهِ حُبًّا لَّهُمَا

عِبَادَةٌ

والذي يتّضح من قول الإمام (عليه السلام) أنّ حبّ الوالدين عبادة، والنظر إلى الوالدين حبّاً بهما وشفقة عليهما ورأفة بهما عبادة، يُثاب عليها الولد.

ولأهميّة ووجوب البرّ بالوالدين والإحسان إليهما نرى أنّ المؤسسة الإلهية الأمّ تتبنّى زرع هذه الثقافة الإلهية الإنسانية، وهذه المؤسسة هي المسجد أو الجامع والذي منه يصل التبليغ إلى الأمة بالمنهج الربّاني الإلهي، والذي لا بدّ من تربية الأمّة على ضوئه، وذلك عن طريق الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة والروايات المباركة.

فلقد أعطى المسجد تربية للفرد والأمّة على أسس إلهية واضحة متينة.. وهذه الأسس الإلهية تدخل في كلّ مفردات الحياة، وفي كلّ جزئياتها، ومن أهمّ هذه المفردات التي يؤكّد عليها المسجد في تربيته للفرد والأسرة والمجتمع علاقة الأبناء بالأبّاء.

ولقد حدّد القرآن الكريم علاقة الأبناء بالوالدين بمنهج أخلاقي رائع متكامل عظيم، كما هو شأنه في كلّ أوامره وتشريعاته ونواهيّه، فهو منهج ربّاني إلهي، لا يصلح الفرد والمجتمع إلّا به.

ونتيجة لحرصه على تربية العلاقة السليمة بين الأبناء والوالدين جعل لهذه العلاقة طبيعة خاصة، فهو دائماً بتشريعاته يقي هذه العلاقة والصلة المقدّسة من الهزّات والانحراف، بل وأكثر من ذلك فهو يضمن لها أن تسير إلى غايتها المنشودة وهدفها المطلوب، وهي رضا الوالدين وسعادتهما بأبنائهما، هذا من جانب.. ومن جانب آخر حُسن توجيه الأبناء نحو والديهم.

ولهذا نرى أنّ المسجد المبلّغ للتربية الإلهية للأمة، المبلّغ للنظريات القرآنية والشرعية للأمة قد نظرَ إلى صلة الأبناء بالوالدين نظرة واقعية، فقد نظر إليها على أساس أنّها صلة مرجوحة من جانب، وراجحة من جانب آخر، فهي ليست متساوية وليست متوازنة.

نظر إليها على أساس أنّ علاقة الطرفين أحدهما بالآخر ليست متكافئة، ولا في موضع واحد، فعلاقة الوالدين بأبنائهما تكون أشدّ وأعمق وأقوى بكثير من علاقة الأبناء بالوالدين.

لأنّ الوالدين حسب الفطرة السليمة التي لديهما يتفوقان وبكثير في محبّتهما وميلهما لأبنائهما على الأبناء في ميلهم وحبّهم لوالديهم.

وهكذا نجد الصلّة بين الأبناء والوالدين في دائرة الحُبِّ والميل صورة غير متكافئة ولا متساوية.

ولهذا أرادت الشريعة أن تضع (عن طريق المسجد) منهجاً

خاصاً للتعامل بين الطرفين، يضمن السلامة لكل منهما، فنجد رسالة القرآن الأخلاقية (والتي تصدر للأمة من المسجد) في الصلّة التي تريد أن تبلغ الطرفين إلى مستوى التكافؤ، مستوى التساوي، مستوى التعادل في سلوك كل واحدٍ منهما نحو الآخر، وتسير الصلّة (بين الطرفين) إلى خطوات متساوية بينهما، إلى أن تصل إلى درجة تكون نقطة الالتقاء، وسَطاً بين الاثنين، فلا يميل أحدهم الآخر، ولا يزهّد في لقائه.

ولمّا كان هذه الالتقاء الوسط متوفراً لدى طرف واحد، وهو الوالدين، بحكم الطبيعة والفطرة التي أودعها الله ﷻ عندهما، بالإضافة إلى الألفة والعادة فهي متوفرة أكثر عندهما من الأبناء، لذلك نجد أنّ وصايا القرآن الكريم (المربيّة للمجتمع والأمة عن طريق المسجد في الصلّة بين الطرفين) تكاد تكون موجّهة إلى الأبناء وحدهم، وفي صورة تجعل طلب ذلك من الأمور التي لا يُغْتَفَرُ التخلّف عنها بأيّ حالٍ من الأحوال.

ولقد أمرت الشريعة الإسلامية المقدّسة بالإطاعة الكاملة والامتثال التامّ إلى الوالدين وأوامرهما الصادرة بداعي الشفقة والحنان، وأوجبت البرّ والإحسان إليهما وأكّدت على ذلك، ودعت إلى الشفقة واللين والرفافة والرحمة بهما، وفرضت الذلّ وخفض الجناح والقول الكريم في معاشرتهما.

قال (تعالى) في سورة الإسراء/آية/(٢٣-٢٤):-

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِأَنوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا
يَبُلُغْنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا آفًا وَلَا
تَنْهَرَهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ
مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾

فقد بينَ (سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى) في الآية الكريمة وجوب الطاعة
للوالدين والإحسان إليهما والبرَّ بهما.

وقد فرضَ (سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى) وجوب الطاعة لهما بعد وجوب
التوحيد إليه، وهذا يعني أنَّ الطاعة لهما من أوجب الواجبات بعد
التوحيد، كما أنَّ عقوقهما من أكبر الكبائر بعد الشرك.

وذلك لأنَّ الرابطة العاطفية المتينة بين الأبوين من جانب،
والولد من جانب آخر من أهمِّ مكوّنات الأسرة الصالحة ومن أعظم
ما يقوم به المجتمع الإنساني على ساقه.

ومن الواضح أنَّ هذا التأكيد على الطاعة والبرِّ والإحسان إلى
الوالدين سببه فضل الوالدين ومقامهما الرفيع، وما بذلاه في سبيل
الولد من الجهود الضخمة مع الرأفة والحنان والشفقة فَرِحِينَ
مستبشرين، لا يريدون من الأولاد أجراً ولا ثواباً.

وبسبب ما تحمّلاه من جهاد العيش وما يتبعه من مشاكل
وصعاب، وبسبب ما تحمّلاه من المشاقِّ والمتاعب في سبيل التربية
الصحيحة والتثقيف والتأديب وإعداد الحياة السعيدة الهانئة.

فكم آثراه على نفسيهما، فسهر الليالي كي ينام، وجاعا كي
يشبع، وتعرياً كي يكتسي، وهذا كلّه دينٌ في عنقه، عليه أن يفِي به

حين يقوى ويضعفان، ولهما فضل السبق والتقدم.
من أجل ذلك كله كان فضل الوالدين على الولد عظيماً وحقهما
جسيماً، لا يمكن أن يقرن بأي فضل أو حق بعد فضل الله ﷻ وحقه.

ثلاثة.. يدفعون العذاب

وردَ في إحدى الروايات:-

﴿إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُصِيبَ أَهْلَ الْأَرْضِ بِعَذَابٍ، قَالَ: لَوْلَا
الَّذِينَ يَتَحَابُّونَ بِجَلَالِي وَيَعْمُرُونَ مَسَاجِدِي وَيَسْتَفِرُّونَ
بِالْأَسْعَارِ، لَوْلَاهُمْ لَأَنْزَلْتُ عَذَابِي﴾

أولاً:-

﴿الَّذِينَ يَتَحَابُّونَ بِجَلَالِي﴾

يعني: يتحابون مع تمام الخشية، لأنَّ الجلال يحتاج إلى
خشية، والجلال يحتاج إلى تذلل، والجلال يحتاج إلى خشوع وتذلل
ورهبة.. وتلك هي صفات المتوجهين إلى الله والعابدن لله
والمتسلِّكين بيوته.

إذا كان السير إلى المسجد يحتاج إلى وقار وسكينة، فكيف
العلاقة مع الله ﷻ؟!... إنها تحتاج إلى منتهى الخشوع والخضوع،
لأنَّ الإنسان الذي يتوجه إلى الله، يشعر بجلال الله وبهيبة الله
وبعظمة الله، ولهذا يقول:-

﴿يَتَحَابُّونَ بِجَلَالِي﴾

ثانياً: -

﴿وَيَعْمُرُونَ مَسَاجِدِي﴾

يَعْمُرُونَ مساجدي، بمجيئهم إليها، وعدم هجرانها، والمداومة على حضور الصلوات فيها، ولهذا نرى أن سيّد الأئمة وسيّد البلغاء والفصحاء والورعين والأتقياء بعد رسول الله ﷺ الإمام أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام يقول: -

﴿الْجُلُوسُ فِي الْمَسْجِدِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الْجُلُوسِ فِي الْجَنَّةِ﴾

لماذا يا سيدي يا أمير المؤمنين؟! ...!

﴿لَأَنَّ الْجُلُوسَ فِي الْمَسْجِدِ فِيهِ رِضَا رَبِّي، وَالْجُلُوسُ فِي الْجَنَّةِ فِيهِ رِضَا نَفْسِي﴾

ويكمل (عليه السلام) فيقول: -

﴿وَرِضَا رَبِّي أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ رِضَا نَفْسِي﴾

لأنّ الإمام (عليه السلام) عاش الله ﷻ بكلّ أعضائه وجوارحه وروحه ونفسه وعقله، ولهذا يريد القرب المركّز دائماً لله، وهو الذي قال له سيّد الأوّلين والآخريين الرسول الأعظم عليه وآله: -

﴿يَا عَلِيُّ، لَا يَعْرِفُ اللَّهُ إِلَّا أَنَا وَأَنْتَ.. وَلَا يَعْرِفُنِي إِلَّا اللَّهُ وَأَنْتَ.. وَلَا يَعْرِفُكَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَا﴾

فهو مع هذه المعرفة يريد القرب أكثر فأكثر، ولهذا يقول: -

﴿الْجُلُوسُ فِي الْمَسْجِدِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الْجُلُوسِ فِي الْجَنَّةِ، لَأَنَّ الْجُلُوسَ فِي الْمَسْجِدِ فِيهِ رِضَا رَبِّي، وَالْجُلُوسُ فِي الْجَنَّةِ فِيهِ رِضَا نَفْسِي، وَرِضَا رَبِّي أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ رِضَا نَفْسِي﴾

هو منتهى العبودية لله، ومنتهى الفناء لله ﷻ، ومنتهى الحب والعشق لله ﷻ، فهو لا يريد شيئاً إلا رضا الله، وهو القائل:-

﴿إلهي.. عبدتك لا خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنتك،
ولكنني رأيتك أهلاً للعبادة فعبدتك﴾

ثالثاً:-

﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ بِالْأَسْحَارِ﴾

حين يُرْخِي الليلُ سدولَه، ويُخيمُ بظلامه، ويُلقِي بأستاره على الأجواء الفسيحة والمساحات الشاسعة.. يعمُّ الهدوء وينتشر السكون حينما يحلُّ الليل.. فإنَّ الظلام يقترن بالهدوء والسكون والاستقرار، وخاصة في الجزء الأخير من الليل المسمَّى بفترة السحر.. قال الله ﷻ في سورة الأنعام/آية/٩٦:-

﴿وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا﴾

ففي فترة السحر.. يجد الأتقياء أنفسهم ولذتهم الكبرى، حين تتحقق لهم الخلوة بخالقهم، يناجونه ويتضرعون إليه ويتقربون منه بأنواع العبادات والمستحبات المتنوعة، ويرتلون أجزاء القرآن، ويحاسبون أنفسهم، مستغفرين لله عما سلف من ذنوبهم، راجين الله التوفيق فيما بقي من أعمالهم وأعمارهم.. قال الله ﷻ في سورة الذاريات/آية/(١٧-١٨):-

﴿كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ
يَسْتَغْفِرُونَ﴾

قلنا أنَّ في فترة السحر، أنواعاً من العبادات والمستحبات،

والتي تجلب للمؤدّي لها البركة والخير والنفع والشرف العظيم،
ولهذا تذكر الرواية:-

﴿إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُصِيبَ أَهْلَ الْأَرْضِ بِعَذَابٍ، قَالَ: لَوْلَا
الَّذِينَ يَتَعَابُونَ بِجَلَالِي وَيَعْمُرُونَ مَسَاجِدِي وَيَسْتَفِرُّونَ
بِالْأَسْحَارِ، لَوْلَاهُمْ لَأَنْزَلْتُ عَذَابِي﴾

للخير.. وُجوه

يقول النبي ﷺ:-

﴿خَيْرَكُمْ مَنْ أَطْعَمَ الطَّعَامَ، وَأَفْشَى السَّلَامَ، وَصَلَّى بِاللَّيْلِ
وَالنَّاسُ نِيَامٌ﴾

فهنا الاستجابة إلى الألفاظ الإلهية وإلى الإمدادات الربّانية،
إلى الخير الإلهي لا تنحصر برويته والاستماع لمنطقه وحثّه وإنّما
بفعله وإنّما بسلوكه وإنّما بأخلاقه وإنّما بسيرته، فيمثّل الأول
الشعور بالمسؤولية وهو إطعام الطعام تجاه الآخرين وتجاه
الفقراء، على قاعدة قول النبي ﷺ:-

﴿مَا أَمَنَ بِي مَنْ بَاتَ شَبَعَانَ وَجَارَهُ جَائِعٌ﴾

فهنا نتيجة الإمدادات الإلهية وصلّ إلى درجة تحمّل
المسؤولية، شعرَ بالمسؤولية، جسّد هذه المسؤولية في سلوكه
وعمله فأطعمَ الطعام للفقراء.

وكان الأمر الثاني هو إفشاء السلام..

وإفشاء السلام هو ما يجمع كلّ أنواع الحبّ والأخوة والوفاء

والقيم والمبادئ الإلهية!...

لأنّ السلام من أسماء الله، والذي يُفشي السلام فقد بدأ باسمه!... وكأنّه يقول:

إنّ الذي يربط بيني وبينك هو الله، فكلنا عباد لله ﷻ، والذي يربط بيني وبينك هو شريعة الله وسنة رسول الله وكتاب الله. وعلى هذه الأسس فنحن على تمام المحبة والأخوة والوفاء والمودة والإخلاص.

هكذا يستلهم الإمدادات الإلهية وهكذا يجسّد الإمدادات الإلهية في السلوك والعمل.

والأمر الثالث هو:-

﴿وَصَلَّى بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ﴾

فهذه الصلاة هي ليست صلاة الفريضة وهي ليست الصلاة الواجبة وهي ليست الصلاة المكتوبة وإنما صلاة العبد الطائع، وإنما هي صلاة العبد المحبّ لربه المشتاق إليه الراغب فيه وفيما عنده.. فهو يستحضر هذه الإمدادات الإلهية وهذه الألفاظ الربّانية وما يحيطه من جو ملائكي!...

ويقف ما بين يدي الله ﷻ يناجيه، يصلّي له، يدعو، يختلي بربه، ولهذا يقول النبي ﷺ: -

﴿وَصَلَّى بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ﴾

ودائماً الأغلب من الناس نيام وإن لم يناموا!!... والأغلب من

الناس في غفلة وهم في وضح النهار!!... ولهذا الحديث يقول:-

﴿النَّاسُ نِيَامٌ، فَإِذَا مَاتُوا انْتَبَهُوا﴾

ولكن هؤلاء الذين استجابوا للأطاف الإلهية والتفتوا إلى الإمدادات الربانية، استجابوا وهم في الحياة الدنيا، انتبهوا وهم في الحياة الدنيا ولهذا تجسدت هذه الاستجابة وتجسد هذا الانتباه في سلوكهم، في شعورهم بالمسؤولية، في علاقتهم مع الآخرين، في علاقتهم مع ربهم.

وَرَدَ فِي أَحَدِ أُدْعِيَةِ أَيَّامِ شَهْرِ رَمَضَانَ الْمُبَارَكِ عَنْ رَسُولِ

اللَّهِ ﷺ :-

﴿اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي فِيهِ رَحْمَةَ الْإِيْتَامِ، وَإِطْعَامَ الطَّعَامِ،

وَأِفْشَاءَ السَّلَامِ، وَصُحْبَةَ الْكِرَامِ، بِطَوْلِكَ يَا مُلْجَأَ الْأَمَلِينَ﴾

والطلب الثاني الذي يطلبه الداعي من الله في دعاء هذا اليوم، فهو إطعام الطعام.. وهو باب من أبواب البر، الذي يعني الإحسان وعمل الخير للناس.. وإطعام الطعام، يشمل إطعام الموسرين أو المستحقين من عباد الله، لوجه الله ﷻ وطلب مرضاته.

إنَّ إِطْعَامَ الطَّعَامِ، خُلِقَ يَدٌ عَلَى سَخَاءِ النَّفْسِ وَكِرْمِهَا، فَثَوَابُهُ كَثِيرٌ وَفَضْلُهُ عَظِيمٌ..

وَمَنْ عُرِفَ بِإِطْعَامِ الطَّعَامِ، شُرِّفَ بَيْنَ النَّاسِ وَقُدِّرَ وَرُفِعَ ذِكْرُهُ وَسُمِّيَ جَوَادًّا، سِوَاءَ كَانِ الْإِطْعَامُ لِأَجْلِ الضِّيَافَةِ، أَوْ إِطْعَامِ الْمَسَاكِينِ.. قَالَ الْإِمَامُ جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ الصَّادِقِ ﷺ :-

﴿مَنْ أَطْعَمَ مُؤْمِنًا مُوسِرًا، كَانَ لَهُ بِعَدْلِ رَقَبَةٍ مِنْ وَدِّ إِسْمَاعِيلَ يُنْقِذُهُ مِنَ الذَّبْحِ، وَمَنْ أَطْعَمَ مُؤْمِنًا مُحْتَاجًا، كَانَ لَهُ بِعَدْلِ مِائَةِ رَقَبَةٍ مِنْ وَدِّ إِسْمَاعِيلَ يُنْقِذُهَا مِنَ الذَّبْحِ﴾

وإطعام الطعام، يدلُّ على نعمة التحبُّب إلى الناس والتوَدُّد إليهم وحُسن المعاشرة معهم.. والله ﷻ يُحِبُّ أن يكون عبده ممَّن يَأْلَف ويؤلَّف مع الناس.. فإطعام الطعام، لدليل على الألفة والمحبَّة بين المؤمنين.. قال رسول الله ﷺ:-

﴿مَنْ أَطْعَمَ ثَلَاثَ نَفَرٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، أَطْعَمَهُ اللَّهُ مِنْ ثَلَاثِ جَنَّاتٍ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ، الْفَرْدَوْسِ وَجَنَّةِ عَدْنٍ وَطُوبَى، وَشَجَرَةٍ تَخْرُجُ مِنْ جَنَّةِ عَدْنٍ غَرَسَهَا رَبُّنَا بِيَدِهِ﴾

أما عن إطعام المستحقين أو المعسرين من عباد الله، فقد قال الله ﷻ في سورة الإنسان/آية/(٨-٩):-

﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا﴾

وقال الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام:-

﴿مَنْ أَطْعَمَ مُؤْمِنًا حَتَّى يُشْبِعَهُ لَمْ يَدْرَ أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ مَا لَهُ مِنَ الْأَجْرِ فِي الْآخِرَةِ، لَا مَلَكٌ مُقْرَبٌ وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾

ثم قال:-

﴿مِنْ مُوجِبَاتِ الْمَغْفِرَةِ إِطْعَامُ الْمُسْلِمِ السَّفِيَانِ﴾

أي (الجوعان).. ثم تلا قول الله (تعالى) في سورة

البلد/آية/(١٤-١٦):-

﴿أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾

وقوله:-

﴿وَأَفْشَاءَ السَّلَامِ﴾

والطلب الآخر الذي يطلبه الداعي من الله ﷻ في الدعاء.. أن يرزقه الله نعمة إفشاء السلام.

ويعني إظهار ونشر السلام والأمان بين الناس، بمختلف أشكال السلام.. من إلقاء تحية السلام، وإصلاح النفس، والإصلاح بين الناس.

وإفشاء السلام من صفات كرام النفوس، ومن المزايا التي يُحِبُّها الله، وَيُحِبُّ مَنْ يَتَخَلَّقُ بِهَا مِنْ عِبَادِهِ.. قال الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام:-

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ إِفْشَاءَ السَّلَامِ﴾

والسلام، من أسماء الله الحسنى، فالله ﷻ هو (السلام المؤمن المهيم).. وقد ذكرنا، أن واحدة من أشكال، إفشاء السلام، هي إلقاء تحية السلام.

إن لتحية السلام، آداب خاصة في الإسلام، يحافظ من خلالها على حقوق الأفراد غاية المحافظة، ويريد بالناس ليكونوا شاكرين مُقَدِّرِينَ بعضهم حقوق البعض الآخر، فالذي يُسَلِّمُ أولاً هو ذو

حقٌّ وفضل، فينبغي أن يُجازى بأحسن ممَّا أتى به، وهذا ما يُقرُّه العقل المتكامل ويأمر به الدين الإسلامي، قال الله ﷻ في سورة النساء/آية/٨٦:-

﴿وَإِذَا حِيَّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾

عن ابن عباس، في تفسير هذه الآية، قال: ((إذا قال المسلم: السلام عليكم، فقلت: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، فقد حيَّيته بأحسن منها، وهذا منتهى السلام))

وإلقاء تحية السلام، من سمات التواضع ضد التكبر، والذي هو أكبر مصاديق الكفر بالله ﷻ.. قال الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام: -

﴿مِنَ التَّوَاضُعِ أَنْ تُسَلِّمَ عَلَيَّ مَنْ لَقِيتَ﴾

ولننتقل الآن إلى نوع آخر من إفشاء السلام، وهو إصلاح النفس والسريرة، ويعني.. الاهتمام بتجميل الصورة الباطنية، أي صورة النفس، وتزيينها بالطيبة وصفاء السريرة وجمال الخلق، لتغدو وضاعة مشعَّة بألوان الخير والجمال، وذلك بتطهيرها من أمراض الرياء والنفاق، والحسد والمكر، وغيرها من السجايا الهابطة المقيتة.

من أجل ذلك، حرَّض أئمة أهل البيت (عليهم السلام) على تهذيب النفس وإصلاح السريرة، لتكون ينبوعاً فياضاً بشرف الفضائل وحسن الأخلاق.. قال أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي

طالب الصلاة :-

﴿كَانَ الْفُقَهَاءُ وَالْحُكَمَاءُ إِذَا كَاتَبَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، كَتَبُوا
بِثَلَاثَ لَيْسَ مَعَهُنَّ رَابِعَةٌ :
مَنْ كَانَتْ الْآخِرَةُ هَمَّهُ كَفَاهُ اللَّهُ هَمَّهُ فِي الدُّنْيَا.. وَمَنْ
أَصْلَحَ سَرِيرَتَهُ أَصْلَحَ اللَّهُ عَلَانِيَتَهُ.. وَمَنْ أَصْلَحَ فِيمَا بَيْنَهُ
وَبَيْنَ اللَّهِ ﷻ أَصْلَحَ اللَّهُ لَهُ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ﴾

قال الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام :-

﴿مَا مِنْ عَبْدٍ يُسِرُّ خَيْرًا إِلَّا لَمْ تَذْهَبِ الْأَيَّامُ حَتَّى يُظْهَرَ اللَّهُ
لَهُ خَيْرًا وَمَا مِنْ عَبْدٍ يُسِرُّ شَرًّا إِلَّا لَمْ تَذْهَبِ الْأَيَّامُ حَتَّى
يُظْهَرَ اللَّهُ لَهُ شَرًّا﴾

أما عن الشكل الآخر من إفشاء السلام، فهو الإصلاح بين
الناس.. وهو من وجوه الخير، وأقرب الأعمال التي يتقرب بها
العبد من ربه.. لأنَّ الإصلاح فيه حسنٌ للشرور، وإزالةٌ لجراثيم
العداوة، لأنَّ العداوة بين شخصين تتطور حتماً إلى العداوة بين
أصدقاء كلٍّ من المتعديين، وكثيراً ما تتطور أسباب الخصام
والتشاحن إلى سفك دماء.. لهذا كان الإصلاح بين الناس من أقرب
الأعمال الخيرة إلى الله ﷻ لأنه يرفع الشقاق بين المتخاصمين،
ويحسم مادة العداة بينهم، ويرجعهم إلى سابق عهدهم من الوداد
والمحبة.

ولذا أصبح الإصلاح بين الناس أفضل من عامة الصلاة
والصيام في الأجر.. قال أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي

طالب العتيبي:-

﴿ سمعت رسول الله ﷺ يقول:

إصلاح ذات البين أفضل من عامة الصلاة والصيام، وإن
البغضة حائلة الدين، ولا قوة إلا بالله، أنظروا ذوي
الأرحام، فصلوهم، يهون الله عليكم الحساب﴾

والإصلاح بين الناس، صفة من أرفع الخصال في النفس
الإنسانية، فهي ميزة لا تصدر إلا من قلب نبيل ونفس زكية، أحببت
الإصلاح، وحسنت مادة النزاع، وأرجعت علاقات الود والصفاء
وحرمة الصلة وروابط الإخاء، عن الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام
قال:-

﴿ إن الشيطان يغري بين المؤمنين ما لم يرجع أحدهم عن
دينه، فإذا فعلوا ذلك استلقى على قفاه وتمدد وقال:-
فرت.. فرحم الله امرءاً ألف بين وليين لنا، يا معاشر
المؤمنين تآلفوا وتعاطفوا﴾

وقد وعد الله (تعالى) المصلحين بين الناس، الثواب الجزيل
والأجر العظيم، حيث قال الله ﷻ في سورة النساء/آية/١١٤:-

﴿ لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف
أو إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله
فسوف نؤتيه أجراً عظيماً﴾

خلاصة الفصل الأول

- ١- إنَّ منهج التسامح الإنساني يفرض على كلِّ إنسانٍ يؤمن بهذا المنهج أن يطبِّق المبادئ التالية عملياً في حياته.
- أ- أن يبذل الإنسان ما عليه من مسؤولية في إدارة مشاعر وأحاسيس وتطلُّعات الآخرين، فهذه المشاركة يندمج الإنسان مع مجتمعه ومحيطه وبذلك يستطيع التأثير فيه بشكلٍ إيجابي وفاعل.
- ب- تؤكِّد شريعة الإسلام السَّمحاء على جميع المؤمنين بتلك الرسالة السماوية المباركة أن يكون الإيمان بالله ﷻ أوَّل أوليات الإنسان ومن ثم التحبُّب إلى أبناء المجتمع.
- ج- من وصايا الرسالة الإسلامية المجيدة أن يتحمَّل الإنسان أذى الآخرين برحابة صدر ونفسية عالية من التسامح والتواضع واستيعاب الآخرين، لأنَّ هذه الصِّفة الإيمانية تكون مصدراً لتكاتف أبناء المجتمع ولانصهارهم معاً في بؤتقة المشاعر الإيجابية البناءة التي تعتمد على الاحترام والتعاون والتكافل الاجتماعي.
- د- إذا كانت ظروف الإنسان العادية لا تسمح له بمدِّ يد

العون للآخرين، فعليه أن يتعامل مع الآخرين بلطف وسماحة وطلاقة وجه وأخلاق راقية، فذلك يبعث الراحة والأمل في نفوس الآخرين.

هـ- عندما ينظر الإنسان إلى الآخرين بنظرة الرحمة والإنسانية ويتعامل مع الكبير بمنزلة الوالد ومع الصغير بمنزلة الولد ومع الأقران بمنزلة الإخوة فبهذه المشاعر الإنسانية الراقية يتخلص الإنسان من حالة ظلم الآخرين وهضم حقوقهم وهدر كرامتهم.

٢- ينقسم محيط الأسرة إلى قسمين هما:

أ- محيط الأسرة الإيجابي والذي تسود فيه العلاقات الإنسانية الحميمة التي أساسها المحبة والتعاون والاحترام المتبادل.

ب- محيط الأسرة السلبي والذي تسود فيه العلاقات السلبية غير الناضجة وغير السليمة، مثل الأنانية وحب الذات الوظيفية وتقديم المصلحة الخاصة على مصالح الآخرين وعدم الاحترام المتبادل وغيرها من الصفات غير الحميدة.

٣- تؤكد الدراسات النفسية والسلوكية أن الأخلاق السيئة والسلوك السلبي ممكن أن تنتقل من إنسان لآخر عن طريق التقليد والمحاكاة إذا كان الإنسان المستقبل ذا شخصية ضعيفة ونفسية

قلقة تفتقد لقابلية التمييز بين المواقف الصحيحة والمواقف الخاطئة.

٤- الأسر السعيدة تُوفّر لأبنائها أجواء الراحة والسعادة وبذلك تُصبح ملاذاً يُوفّر لأبنائها علاقات المحبة والاحترام والتعاون المتبادل بين جميع أفراد الأسرة، الأمر الذي يؤدي إلى إشاعة روح الهدوء والاسترخاء والتعاون بين جميع أبناء تلك الأسرة.

٥- الأسر غير المنظمة سلوكياً تكون علاقة أبنائها بعضهم ببعض علاقات مُتشنجة ومُتوترة، الأمر الذي يجعل الجو العام للأسرة مشحوناً بعدم الراحة والانسجام.

٦- الأسرة الصالحة عماد رقي المجتمع وتطوره مادياً ومعنوياً ومعرفياً.. والعلاقات السليمة والصحيحة والناضجة في التعامل بين أبناء الأسرة تعكس حالة النضج الأخلاقي والسلوكي لتلك الأسرة، وذلك بدوره يعكس تأثير تلك الأسرة بين الأصدقاء والمعارف ومن ثمّ أنّ التأثير في جميع عناصر الوسط الاجتماعي.

٧- من أجل تحقيق نظام أسري سليم وفاعل يجب أن تتأكد العلاقات الاجتماعية الأسرية السليمة بين أفراد الأسرة الواحدة وهذه العلاقات تعتمد على صور التعاملات الاجتماعية الصحيحة بين عناصر الأسرة الواحدة والتي يمكن إجمالاً حصرها في العناوين التالية:

أ- كيف أتعامل مع والدي؟...

ب- التفاهم وحلّ المشاكل الأسرية.

ج- العلاقة بالإخوة.

د- النظام في الأسرة.

هـ- علاقة الأسرة بالآخرين.

٨- المجتمع البشري يتكون من وحدات أساسية تشكل الدعائم الرئيسية لوجوده، وهذه الوحدات الأساسية هي مجموعة الأسر التي تُكوّن المجتمع، وبذلك يتكوّن النظام الاجتماعي أو النسيج الاجتماعي عن طريق شبكة الترابط بين تلك الأسر، وهذا الترابط الاجتماعي لا يتمّ ما لم يتمّ قبله الترابط الأسري، أي: ترابط أفراد الأسرة الواحدة بعضهم مع البعض الآخر.

٩- ولأجل ضبط النسيج الاجتماعي بصورة متناسقة بعيداً عن الخلل والتخفيف، جاءت الشريعة الإسلامية بمجموعة من التعاليم السماوية التي تضبط وتنظّم العلاقة بين عناصر الأسرة الواحدة، وتنظّم علاقة الأسرة مع الأسر الأخرى، وهكذا صعوداً ليتمّ التنظيم الشامل الذي يشمل كلّ الأمة.

١٠- إنّ تنظيم الأسرة لا يتمّ بشكل واقعي ما لم تكن هناك ولاية مركزية على كلّ أسرة وهذه الولاية تتمثّل بوجود راعي الأسرة وقائدها وموجّهها ألا وهو الأب.

١١- إنّ مركز الأب في الأسرة يمثّل دور الراعي والقائد والموجه والمعلم والحامي لجميع أفراد الأسرة، وبظلّ الأب وحبّه

وعطفه تتعلّم الأسرة قيّم التربية السليمة، وحتى يكون دور الأب فاعلاً في الأسرة وبصورة مستمرة جاءت الرسالة الإسلامية لتُحدّد حقوق وواجبات الأب ودوره في قيادة الأسرة، كما أنّ رسالة الإسلام السمحاء حدّدت بدقّة متناهية واجبات والتزامات الأبناء تجاه والدهم.

١٢- إنّ مبادئ التربية الإسلامية تُوكّد بصورة واضحة ودقيقة على جميع أفراد الأسرة الالتزام بقيّم الاحترام المتبادل بقيّم التضحية والأخبار ومشاعر الحنان والحبّ وأن تكون هذه المشاعر الإيجابية بمثابة حلقات الترابط بين أفراد الأسرة المتماسكة والمتعاونة في شؤونها العائلية.

١٣- من الملاحظ عملياً أنّ الأسرة التي تسودها علاقات الأنانية وحبّ الذات واحتقار الآخرين وممارسة مشاعر الحقد والبغض والحسد بين أفرادها تكون هذه الأسرة مثلاً واضحاً للأسرة المفكّكة الفاشلة في أداء مسؤوليتها الإيمانية والإنسانية والاجتماعية.

١٤- لقد أكّدت التعاليم الإسلامية على حبّ الوالدين وبرّهما والإحسان إليهما، كما أكّدت تلك التعاليم المباركة على الوالدين بحبّ أبنائهما وحسن تربيتهما.. ولا بدّ لنا أن نشير في هذا المقام إلى رسالة الحقوق للإمام زين العابدين علي بن الحسين (عليهما السّلام)، حيث نجد في الباب السادس من الرسالة عنوان (حقّ الرّحم)، ومن

هذا الباب يستعرض الإمام (عليه السلام) الحقوق التالية:

- ١- حق الأم.
- ٢- حق الأب.
- ٣- حق الولد.
- ٤- حق الأخ.

وجدير في هذا المقام أن نذكر حقيقتين من تلك الحقوق، وهي

حق الأب وحق الابن فيذكر الإمام (عليه السلام) حق الأب:-

﴿وَأَمَّا حَقُّ أَبِيكَ، فَإِنَّ تَعْلَمَ: أَنَّهُ أَصْلُكَ، وَأَنَّكَ فَرْعُهُ، وَأَنَّكَ لَوْلَاهُ لَمْ تَكُنْ، فَمَهْمَا رَأَيْتَ فِي نَفْسِكَ مِمَّا يُغْجِبُكَ، فَاعْلَمْ: أَنَّ أَبَاكَ أَصْلُ النِّعْمَةِ عَلَيْكَ فِيهِ وَأَحْمَدِ اللَّهَ وَاشْكُرْهُ عَلَى قَدْرِ ذَلِكَ﴾

حق الولد:-

﴿وَأَمَّا حَقُّ وَلَدِكَ، فَإِنَّ تَعْلَمَ أَنَّهُ مِنْكَ وَمُضَافٌ إِلَيْكَ فِي عَاجِلِ الدُّنْيَا بِخَيْرِهِ وَشَرِّهِ، وَأَنَّكَ مَسْئُولٌ عَمَّا وَلِيْتَهُ مِنْ حُسْنِ الْأَدَبِ وَالِدَلَالَةِ عَلَى رَبِّهِ وَالْمَعُونَةِ لَهُ عَلَى طَاعَتِهِ فِيكَ وَفِي نَفْسِهِ، فَمَثَابٌ عَلَى ذَلِكَ وَمُعَاقِبٌ، فَاعْمَلْ فِي أَمْرِهِ عَمَلِ الْمُتَزَيِّنِ بِحُسْنِ أَثَرِهِ عَلَيْهِ فِي عَاجِلِ الدُّنْيَا، الْمُعْذِرِ إِلَى رَبِّهِ، فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ بِحُسْنِ النِّقْيَامِ عَلَيْهِ وَالْأَخْذِ لَهُ مِنْهُ، وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾

١٥- إنَّ العلاقة بين الآباء والأبناء تبقى وثيقة وإيجابية حتى

عندما يستقلُّ الأبناء عن والديهم، لأنَّ هذا الاستقلال ليس استقلالاً

قطعيًا ونهائيًا، وإنما هو استقلال شكلي تفرضه نمطية الحياة الاجتماعية.

نعم، قد يستقلُّ الأبناء عن آبائهم عندما يقوم الأبناء بتكوين أسرهم الخاصة، لكن هذا الاستقلال عَرَضِي وليس استقلالاً عن الروابط الأبوية والأسرية.

١٦- لقد أُكِّدَت جميع الرسائل السماوية ومنها الرسالة الإسلامية على وجوب رعاية الأبناء للوالدين، خصوصاً عندما يبلغ أحدهما أو كلاهما مرحلة التقدم في العمر، حيث يكون الآباء في حالة ضعف وتكون حاجتهم ماسةً لمساعدة الأبناء لهم.

١٧- في العلاقات الأسرية الصحيحة لا تتقدم أبداً العلاقات المادية المصلحية على العلاقات الإنسانية، فمن الخطأ ما يقوم به بعض الآباء بحرمان أبناءهم من الدراسة أو التقصير عليهم في المؤونة ومتطلبات العيش المعقولة وقيامهم بتوجيه أبنائهم إلى العمل حتى ولو كان الأبناء في سنٍّ مبكرٍ.

١٨- المعيار السليم في العلاقات الأسرية الناجحة وجود علاقة بين أفراد الأسرة قوامها الاحترام والمحبة والتعاون بين أعضاء الأسرة الواحدة، ولأجل إدامة هذه المشاعر الإنسانية متفاعلة مع الجميع، فعلى كل فردٍ من أفراد الأسرة المبادرة بتقديم الهدايا فيما بين الأبناء والوالدين وبالعكس، باغتنام مختلف المناسبات السعيدة، فإنَّ ذلك يُسهم بشكلٍ كبيرٍ في توطيد علاقات

المحبة والاحترام بين جميع أبناء الأسرة وذويهم.

١٩- نظراً لتطور مُدركات الإنسان الثقافية أصبح الحديث مع الآخرين فناً من فنون الثقافة المجتمعية، وعن طريق تداول الأحاديث الشيقية والمفيدة بين مختلف أفراد العائلة، تنشأ روابط الاحترام والمودة والانسجام بين أفراد الأسرة وينبغي الانتباه إلى الأمور التالية أثناء خوض الأحاديث بين أفراد الأسرة وهي:

أ- عدم مقاطعة المتحدث حتى ينتهي من طرح فكرته بصورة كاملة.

ب- يجب احترام الشخص الكبير عند الحديث والإصاات له.

ج- على الجميع إبداء الانتباه للمتحدث وعدم التفاوضي عن حديثه.

د- إنَّ صفة الاحترام المتبادل بين أفراد الأسرة يعكس حالة عالية من انسجام أبناء الأسرة بعضها ببعض.

هـ- على الجميع الحرص التام بطرح المواضيع الجيدة والمفيدة والمطروقة حديثاً على الساحة الاجتماعية والابتعاد عن النقاشات المكررة في مواضيع معينة، فإنَّ ذلك يُسبب الملل والضجر في نفوس المستمعين.

٢٠- تُعتبر الأسرة نواة المجتمع وكيانه الأساس وقاعدته الأولى في بناء المجتمع، وكلما كانت الأسرة منظمّة وواعية، فإنَّ

مجموعها المُنظَّم والواعي ينعكس على المجتمع بصورة عامَّة ومباشرة.. ومن أُسُس نجاح الأسرة: شيوع النظام والتعاون والتآلف بين عناصرها، وإن اختلف عناصرها من ناحية العمر أو الجنس.

٢١- إنَّ الأسرة الناجحة تحتاج إلى حالة من النظام الأسري، الذي يضبط جميع تصرُّفات أفراد الأسرة داخل وخارج الأسرة، وعناصر هذا النظام يُمكن حصرها بالنقاط التالية: :

أ- وضع ميزانية للأسرة تضبط حالتها المالية بحيث تجعلها في حالة توازن بين الواردات والمصروفات.

ب- وجود شخص يقوم بقيادة الأسرة وتوجيهها الوجهة الصحيحة، وبذلك تستطيع الأسرة تجاوز المشاكل والعقبات التي تواجهها في مختلف شؤون الحياة.

ج- تنظيم الوقت داخل الأسرة بحيث يسير جميع أفراد الأسرة بنسق مُنظَّم تكون نتيجته تطوُّر الأسرة ونجاحها في كافَّة نواحي الحياة العملية.

د- السيطرة على إدارة المشاكل التي قد تحصل داخل الأسرة لأيِّ سببٍ كان، فإنَّ ذلك من شأنه أن يُعضدَّ أواصر التكتُّف والتعاون بين أبناء الأسرة الواحدة.

هـ- الاستعداد المُسبق لمواجهة الظروف الاقتصادية الطارئة التي قد تواجهها الأسرة نتيجة لظروف آنية

طارئة مثل المرض أو التعرض للحوادث المختلفة.
 و- على الشخص الذي يكون مسؤولاً عن إدارة الأسرة أن يتحلّى بالكثير من الصبر وضبط النفس والتعالي عن توافه الأمور وتقبل الحوادث بصدر رحب وعقل منفتح، فإنَّ الحكمة مطلوبة ويجب توفرها بالشخص الذي يقوم بإدارة شؤون الأسرة.

ز- إشاعة روح التفاهم والاحترام المتبادل والتعاون بين أفراد الأسرة تُعتبر من الأسس المهمة لبناء الأسرة الناجحة.

ح- الأسرة الناجحة تحسّن استثمار الوقت بصورة جيدة وتنظيم الوقت بالشكل الأمثل، يمنح الأسرة الكثير من فرص النجاح والتقدم والسعادة أيضاً.

ط- الاستفادة من أوقات الفراغ وتوظيفها بالشكل الذي يعود بالفائدة على جميع أفراد الأسرة، مثل توظيف وقت الفراغ لمراجعة المواد الدراسية، أو استثمار الوقت للقيام بأعمال يدوية حرفية مفيدة للأسرة.

٢٢- الأسرة كيان اجتماعي يرتبط بشبكة من الروابط والعلاقات الاجتماعية مع الأسر الأخرى وبذلك يتكوّن المجتمع، فكلمًا حرصت الأسرة على أن تكون علاقاتها الاجتماعية طيبة مع الأسر الأخرى.. بالنتيجة يكون المجتمع مترابطاً ومتعاوناً بعضه

مع البعض الآخر وتتقوى أواصر التعاون والاحترام والمحبة بين أبناء المجتمع.

٢٣- إنَّ حالة الانعزال التي تفرضها بعض الأسر على نفسها وتتغلق عن المحيط المجتمعي، فإنَّ تلك الأسرة لا تحظى باحترام المجتمع ولا يتعاون معها المجتمع أيضاً، فمثل هذه الأسرة تبقى أسيرة محيطها الذاتي فقط، وبذلك تشعر هذه الأسرة بأنَّها غريبة في المجتمع وبعيدة عنه أيضاً.

٢٤- الإنسان الذي يتقى الله حقَّ تقاته، والذي يتمسك بحبل الله وتعاليمه السماوية المقدَّسة، فمثل هذا الإنسان تشمله الرعاية الربَّانية وتتفتق في أعماقه فيوضات الرحمة الإلهية فتحصل داخل روحه إشراقات نورانية تجعله أكثر قرباً من غيره إلى الله ﷻ، وأكثر من غيره معرفةً بتجليات قدرة الله ﷻ وأكثر من غيره اتِّصلاً بالله ﷻ وأكثر من غيره خدمةً لمنهج الله ﷻ وهذا هو منهج الأنبياء والأئمة والصالحين.

٢٥- كلما ازداد الإنسان إيماناً بالله ﷻ، ازداد تمسكاً بمبادئ القيم الإيمانية وتعاليم الرسالة الإسلامية السمحاء وبذلك يزداد احتراماً لقيم الإنسان لأنَّ الإنسان هو خليفة الله ﷻ في أرضه.

٢٦- إنَّ النظرة الواقعية لمنظومة الحياة الإنسانية تكشف لنا ارتباط الإنسان بشبكة من العلاقات الاجتماعية، وتوسيع هذه الشبكة من العلاقات أو تضيق مساحتها يعتمد على سلوك الإنسان

نفسه.. فالإنسان الناجح المتفائل المتطلع لمستقبل أفضل يكون حريصاً على توسيع علاقاته الاجتماعية مع الآخرين.

٢٧- الإنسان الواعي والفاهم لدوره الرسالي والإنساني يجعل المنهج الإيماني، الذي يؤمن به إطاراً عاماً للمدرسة الإنسانية التي ينتمي إليها، وهذه الرؤية الإيجابية لا تتحقق على أرض الواقع إلا بوجود شرطين هما:

أ- أن يكون التعامل مع الآخرين بخلق وتربية الإنسان المؤمن بقيمه الإيمانية والمحترم لذاته الإنسانية، وأن لا يتعامل هذا الإنسان الواعي مع الآخرين على أساس خلق وتربية الآخرين.. فاختلاف وتربية الإنسان المؤمن الناضج هي الأساس في التعامل الآخرين.

ب- لأجل تحقيق الشرط الأول، يجب على الإنسان المنفتح أن يكون ذا صدر واسع حتى يتمكن من استيعاب الآخرين.

٢٨- الإنسان الذي يعيش حالة حب ذاته وأنه يكون أسير تصوراتهِ الخاصة المحدودة التي يصنعها لنفسه والتي تُرضي رغباته النفسية المريضة، مثل هذا الإنسان يحاول تعظيم أخطاء المقابل ويحملها على سوء الظن فتفاعل في نفسه ضغائن الانتقام من الآخر بصورة لا مبرر لها إطلاقاً.

٢٩- التسامح صفة أخلاقية رفيعة لا تصلها إلا النفوس

الكبيرة التي تمتلك قابلية حُبِّ الآخرين واحترامهم.. والشخصية المتسامحة تمتلك قابليات عظيمة منها التضحية والإيثار والتنازل عن المصالح الذاتية الضيقة لصالح الآخرين.

٣٠- إنَّ قِيَمَ الإيمان العملي والإنسانية العملية تفرض على الإنسان الناضج المؤمن بهما أن يكون مُتَّصِفاً بصفة التواصل مع الآخرين وحتى مع مَنْ قاطعه، وأن يكون مِعْطَاءً مع الآخرين وحتى مع مَنْ حَرَمَهُ، بمعنى أن يتعامل الإنسان المؤمن بحالة إيجابية مع كلِّ الحالات السلبية التي واجهها في الواقع العملي، ومن خلال ذلك نلمس السلوك الإنساني العملي والسلوك الإيماني العملي وكذلك السلوك الوطني العملي.

٣١- الإنسان المؤمن الإيجابي المنفتح على الآخرين تكون عنده استعدادات نفسية عالية، تجعله أن يكون حكيماً في تعامله مع الآخرين، وإن كان الآخرون لا يصلون إلى مستواه التربوي والأخلاقي، لكن عليه أن يستوعب الآخرين بكلِّ ما فيهم من سلبيات.. أن يقف ويساعد الآخرين وبضمنهم الأشخاص الذين لم يُحَسِّنُوا التصرُّف معه وأساءوا إليه في وقت سابق.

٣٢- إنَّ السلبيات الموجودة عند بعض أفراد المجتمع يجب الاهتمام بها ومعالجتها من قِبَل الأشخاص الرساليين الذين يحملون قِيَمَ ومبادئ منهج التسامح والإصلاح وأن يتعاملوا مع تلك السلبيات على أنَّها أمر واقع مفروغ منه، ولا بدَّ من معالجة هذه

الحالات الشاذة بكل الوسائل المشروعة الممكنة حتى تتأكد المشاركة الجماعية في عملية الإصلاح والتغيير الاجتماعي.

٣٣- العمل الإصلاحي الميداني يحتاج إلى شعور عالٍ بالمسؤولية بحيث يتحمل الشخص القائم بهذا العمل الكثير من سلبيات الآخرين، ومن أهم تلك السلبيات حالة التحاسد الموجودة بين الناس والأهم من ذلك، وجود الاتجاه النمطي التقليدي في المجتمع، وأن أصحاب هذا الاتجاه ينظرون إلى أي عملية إصلاح اجتماعي بعين الشك والريبة والخوف منها، لأن عملية الإصلاح قد تُهدد مصالحهم أو مكتسباتهم، لذا تلاحظ أن مثل هؤلاء الأشخاص يقومون بمحاربة أصحاب الآراء الإصلاحية باستخدام الإشاعات المُعرضة التي تحاول إسقاط الأشخاص المصلحين من أعين الناس وإفشال مشاريعهم الإصلاحية والتنويرية.

٣٤- هناك الكثير من النصوص الإيمانية تحث الإنسان على تقديم الإحسان للأشخاص المسيئين، وفي هذا التصرف الإنساني (تقديم الإحسان للشخص المسيء)، تكمن عملية إصلاح الأشخاص الذين تعودوا الإساءة إلى الآخرين، فعن طريق تقديم الإحسان بدل الإساءة تتولد حالة من مراجعة النفس عند ذوي الإساءة، ويبدأون بمراجعة أنفسهم ومن ثم يستشعرون حالة الخطأ التي ارتكبوها مع الآخرين وبذلك تكون ردة أفعالهم ترك الإساءة، وهذا ما تبغيه عملية الإصلاح الجماهيري في عملية التغيير الاجتماعي نحو

الأفضل.

٣٥- من يحمل الرسالة الإيمانية والإنسانية والوطنية عليه ان يتحمل إساءة الآخرين له، ومن خلال التجربة العملية والعمل المستمرّ والدؤوب في إرساء معالم العملية الإصلاحية وتحقيق الأهداف الواحد تلو الآخر ستتغير القناعات عند الأشخاص المسيئين وتتغير نظرتهم لعملية الإصلاح، وبالنتيجة سينجذبون إلى جانب العمل الإصلاحي ولو بعد حين من الوقت ولكن النتيجة تكون النجاح في تغيير قناعات الآخرين بالعملية الإصلاحية.

٣٦- إن تحليل مصادر الإساءة الواردة من الآخرين تكون

على قسمين هما:

أ- إساءة صادرة من شخص غير معروف يسكن في

مكان بعيد عن القائم بالعملية الإصلاحية.

ب- إساءة صادرة من شخص معروف الحال عند

المتصدّي لعملية الإصلاح، كما أنّ الأخير يعرف

الشخص المسيء، وهذه الجزئية تكون أسهل من الحالة

الأولى (أ)، لأنّ حالة التواصل تكون ممكنة بين الطرفين

على عكس الحالة (ب) حيث لا اتصال ولا تواصل بين

الجانبيين.

وبعد تحليل مصدر الإساءة تأتي عملية العلاج، فعلاج

الحالة (ب) تكون أسهل من علاج الحالة (أ) بسبب

وجود قنوات للاتصال مختلفة بين الطرفين.

٣٧- ما هو الإحسان العملي؟...

الإحسان العملي: سلوك إيجابي يتجسد بالواقع العملي عند التعامل مع الشخص الآخر الذي صدرت منه إساءة مقصودة.. ويتحقق هذا المقصد في أمرين هما:

الأمر الأول: التغاضي عن الإساءة، بحيث يكون التصرف مع الشخص الذي صدرت منه الإساءة تصرفاً عفويًا وعادياً وكأن شيئاً لم يكن.

الأمر الثاني: التصرف مع الشخص المسيء بأخلاق إنسانية رفيعة بحيث يجعل المسيء يراجع نفسه ويندم على إساءته إلينا.

الفصل الثاني

ويتكوّن من أربعة مباحث:

المبحث الأول:

المؤمن.. خيرٌ كلّهُ

المبحث الثاني:

من مظاهر الأنايَّة.. في حياة الإنسان

المبحث الثالث:

محنة الإنسان.. تكمن في أزمة الأخلاق

المبحث الرابع:

مبحث تفسيري

الفصل الثاني

المبحث الأول

الْمُؤْمِنُ .. خَيْرٌ كُلُّهُ

الْمُؤْمِنُ.. خَيْرٌ كُلَّهُ

ويصنع الإنسان وجوده ويبنى حياته سائراً ضمن عوالم الطبيعة وحركة الموجودات.. وهو بعد ذلك تُقرأ ذاته وشخصيته وتُقاس بما ينتجه من أثر وما يصنعه من فعل، فأثره يدلُّ عليه. الإنسان بفعله المباشر، أو بما يُنتج من فعل وبما يلدُ هذا الفعل من نتائج وآثار يصنع الحياة، إن خيراً فخييراً، وإن شراً فشرّاً.

والإنسان بما هو كائن اجتماعي يعيش ضمن مجتمع بشري يرتدُّ أثر فعله الاجتماعي على شخصيته بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، سلباً كان أو إيجاباً.. والوجود بمنطقه العامِّ إيجابيٌّ ببناء، والإنسان بما يحمل من إرادة وتكوين نفسي شكَّلتُهُ تجارب وخبرات متفاوتة يتعامل مع نفسه ومع ما حوله بطرق وأساليب متباينة، وهذا التعامل يُصنّف الناس إلى إنسان إيجابيٌّ ببناء وآخر سلبيٌّ هدام.

والهدم والبناء ظاهرتان متضادتان في حياة الفرد والجماعة وبينهما صراع ونزاع متواصل قد ينتهي إلى نتائج ببناء أو سلبية هدامة.

الإنسان بطبيعته الفطرية جزء من عالم الطبيعة الخيرة،

والأصل في حياته وسلوكه لو استقام على الفطرة، لكان إنساناً إيجابياً بناءً، غير أن عوامل عديدة تحرف فطرته عن قانون الطبيعة الخَيْر، وتجعل منه إنساناً هداماً وعنصراً عدوانياً، يَنزِع إلى الهدم والتخريب والعدوان، لذا كانت مهمّة الشريعة والقِيم الإلهية حماية الفطرة من التلوُّث، والانحراف، ومنع الإنسان من التأثر بنزعات الشرِّ والعدوان.

إنَّ السلوكية الهدامة، سلوكية مريضة وحالة عدوانية تحتاج إلى علاج، فالشخص الهدام هو إنسان يُعاني من حالة مرَضِيَّة في أعماق نفسه، يُعبّر عنها بالفعل الهدام، وبالموقف الهدام، والهدم هو حالة سلبية تقود الإنسان إلى سلوك الاتجاه المُعاكس الذي فيه خير الفرد والجماعة، والحالة السلبية تُؤدِّي إلى التعامل بعدوانية وتخريب مع الآخرين.

وفي الهدى النبوي نقرأ دعوة الرسول الأعظم مُحَمَّد ﷺ إلى الإنسان المؤمن أن يكون كالنحلة يتعلّم منها، ويتمثّل حياتها، في نقاء الطبيعة وخيرية الفطرة وإيجابية السلوك، إنّه يصف المؤمن بقوله:-

﴿الْمُؤْمِنَ كَالنَّحْلَةِ، إِنْ أَكَلَتْ أَكَلَتْ طَيْبًا، وَإِنْ وَضَعَتْ وَضَعَتْ طَيْبًا، وَإِنْ وَقَعَتْ عَلَى عُوْدٍ لَمْ تَكْسِرْهُ﴾

تشبيهه رائع ووصف جميل يُشخصه الرسول الكريم مُحَمَّد ﷺ

لنموذج حياتي صالح يستطيع الإنسان أن يقتبس منه التجربة

الإيجابية، فالإنسان المؤمن الذي اهتدى بهدي الرسالة، وتشبّع بأدب النبوة وانتظم في سرب السائرين إلى الله ﷻ يكون كل وجوده عطاء وخير ونماء.

إنَّ الرسول ﷺ يُشَبِّهُ الْمُؤْمِنَ فِي النَّاسِ كَالنَّحْلَةِ فِي الْأَحْيَاءِ، فيما يأخذ ويُعطي، ويترك من أثر في الوجود.. والتشبيه النبوي هذا، يدعونا إلى العودة إلى كتاب الله للإطلاع على عالم النحل ووصفه في القرآن لنضمَّ هدياً إلى هدي، وبياناً إلى بيان، فتتفاعل المعاني، وتكتمل الصورة، وتثرى الإحياءات، ويتعمق الوعي، وتتفتح الآفاق، ويتقارب العالمان: عالم المؤمن، وعالم النحل، في الأخذ والعطاء، والنظام، وفي الحركة والنشاط، قال (تعالى):-

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ* ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾^(١)

فحياة النحل (في هذه الآية) حركة ونشاط دؤوب، ونظام وانتقال من طيب إلى طيب، ومن أثرٍ نافعٍ إلى أثرٍ نافعٍ.

وفي تطبيقات الوصف النبوي نجد التشبيه البياني الرائع.. نجد الدلالات الجامعة في حياة الإنسان المؤمن مُشَبَّهة بحياة النحل، إنه يصف المؤمن فيما يأخذ ويُعطي، كما هو وصف النحل في

(١) سورة النحل/آية(٦٨-٦٩).

القرآن، لا يظلم أحداً حين يأكل ويستهلك، فهو لا يأكل إلاّ الحلال الطيب، لا يسرق ولا يتناول محرماً، فالمؤمن كالنحلة في طعامها وغذائها تتناول رحيق الأزهار وسُكَّر الثمار وتُعطي العسل شفاءً وغذاءً للناس، وتسلك سُبُل ربِّها ذُللاً، لا تحيد عن نظام الفِطرة والتكوين، مُنقادة غير مُتصعبة، فالإنسان في الوصف والبيان النبوي: ما يصدر عنه خير وبركة.. يرجو الناس عطاءه، وما يصدر عنه، كما يرجون عطاء النحلة.. فلا يخشى أحد من النحلة أن تفرز سُمّاً، كما تقيئ الحية سُمّها في الحليب حين تلغ فيه، ولا يترقبون منها ذلك، بل ينتظرون منها العسل النقي، طعاماً وشفاءً، مُتعة للحسِّ والنفس.. وكذا يكون المؤمن بالله ﷻ خيراً يرتجى، وإحساناً يُنتظر، فلا يُتوقَّع منه الشرُّ والعدوان، كما لا يُتوقَّع من النحلة أن تضع سُمّاً أو تفرز مرارة الحنظل.

وفي الهدى النبوي كان المؤمن كالنحلة: إن وقَّف على عود نخر، لم يكسره، لم يكن عنصر هدم ولا تخريب، خفيف الكلفة، سهل المؤونة، لا يُثقل على أحد، ولا يعبت بعالم الطبيعة والأحياء، فالناس منه في راحة، ولهم فيه رجاء وأمل، وهو كما أنه مأمول الخير، فإنه مأمون الشرِّ والأذى.

فَشَتَّانَ بَيْنَ وَصْفِ النحل والجُرذ.. فالنحلة إن وقفت على عود نخر، لم تكسره، والجُرذ إن حلَّ في بيت أو بناء مُشيد، بحث وواصل الحفر والتخريب فيه، حتى يهدمه على ساكنيه.

ويتحدّث القرآن عن التخريب والمُخْرِيبِينَ الَّذِينَ يُهَدِّمُونَ بِنَاءَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ، بفعلهم وسوء تفكيرهم وتدبيرهم، ويدعوهم إلى الاعتبار والتفكّر في عمل هذا الإنسان المُخْرَبِ الْهَدَّامِ، الذي يهدّم بِنَاءَهُ، وبيته، وأهدافه.. إِنَّ الْقُرْآنَ يَتَّخِذُ يَهُودَ بَنِي النَّضِيرِ مَثَلًا لِلْهَدْمِ وَالتَّخْرِيبِ وَسُوءِ التَّصَرُّفِ وَالتَّدْبِيرِ، قال (تعالى):-

﴿...وَوَظَنُوا أَنَّهُمْ مَانَعْتَهُمْ حُصُونَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَآتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بِيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ﴾^(١)

تلك صورة من أعماق التاريخ يلتقطها القرآن، ويسجّلها مثلاً وعبرةً لأجيال المؤمنين، لئلا يُخْطِئُوا الْحِسَابَ، فيُخْرِبُوا بِيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ، ويهدّموا بِنَاءَهُمْ ووجودهم، الفكري، والسياسي، كما فعلت تلك المجموعة من اليهود في ذلك الموقف، لذا فهو يُعَقِّبُ بِقَوْلِهِ:-

﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ﴾^(٢)

إنه يوجّه الخطاب لأصحاب العقول الواعية للتجربة التاريخية، والعقول النيرة للرؤية والتشخيص، لتعتبر بهذا الحدث التاريخي، فلا تُكْرِرُ الْخَطَأَ.. إِنَّ الْمَجْتَمَعَ الْإِنْسَانِيَّ وَالْجَمَاعَةَ الْإِنْسَانِيَّةَ وَالْحَيَاةَ الْاجْتِمَاعِيَّةَ بِكُلِّ أَنْشِطَتِهَا الثَّقَافِيَّةِ وَالْمَالِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ وَالْخَيْرِيَّةِ، كثيراً ما تضمُّ عناصر تحمل روح الهدم والتخريب، وإن بدا على

(١) سورة الحشر/آية/٢.

(٢) سورة الحشر/آية/٢.

ظاھرھا الرغبة في المشاركة الجماعية ذات النفع العام، غير أنّھا تنطلق من حسابات ومصالح أنانية.

وحيث ترى تلك العناصر أنّ المصالح الذاتية الخاصة بها لا تتحقّق في هذا المشروع القائم أو ذاك، فلا تتورّع عن هدمه وتخريبه، وقد ترى مصلحتها الذاتية في إعاقة هذا المشروع الثقافي أو السياسي أو الخيري أو غيره، فتسعى لوضع العراقيل والمعوقات والعمل للحيلولة دون نجاحه، بل وتدخل في معركة إسقاط ومنازعة مع الساعين في إقامة تلك المشاريع والنشاطات.. فكم خسرت الأمة على امتداد تاريخها من مواقف ومشاريع كان بالإمكان أن تؤدّي دوراً كبيراً للمجتمع لولا عمليات الهدم والتخريب الأناني، والحسابات الذاتية العمياء التي لا تبصر الدنيا إلا من خلال (الأنبا) العدوانية الذي يسعى لمصادرة الآخرين، وإلغاء كل وجود لا يتحرّك من خلال تلك التصوّرات المريضة والمفاهيم المعيقة.

إنّ وجود تلك الحالات الشاذة يشكّل خطراً على بنية الفرد والمجتمع ومؤسساته الاجتماعية والفكرية والسياسية والخدمية وغيرها.. وهذا ما تعاني منه مجتمعاتنا وأنشطتنا المختلفة.

لماذا الهدم والتخريب؟...

وحالات الهدم والتخريب لها أسبابها ودوافعها النفسية عند الإنسان المخرب الهدام، فيما يلي نذكر أهمّها وأكثرها خطورة في

سلوك الإنسان، هي:

١- الجهل:

إنَّ السبب الأوَّل في هذه السلوكية العدوانية الخطيرة على حياة الفرد والجماعة هو الجهل.. وليس معنى الجهل هو أن يكون الشخص الهدَّام أمياً أو من أنصاف المتعلِّمين، فقد يكون هذا العنصر متعلِّماً وحاملاً لشهادات عليا، ويملك خبرات وتجارب في الحياة، وقد يكون حاكماً أو سياسياً أو نشطاً اجتماعياً وثقافياً، أو صاحب كفاءة واختصاص علمي، ومع ذلك فهو يجهل خطورة فعله الهدَّام، ويمارس الهدم والتخريب، ويعتبر فعله الضارَّ ضرورة ومصلحة، وبذلك ينطبق عليه قوله (تعالى):-

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ

مُصْلِحُونَ* أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾^(١)

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً* الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ

فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾^(٢)

إنَّ هذا الصنف من الناس مُعجَب برأيه ونفسه، وهو كما وردَ في روايات أئمة أهل البيت(عليهم السَّلام) يُفسد بالعُجب عمله.. فعن عليِّ بن سويد عن أبي الحسن الرضا(عليه السَّلام)، قال: سألتُه عن العُجب الذي يُفسد العمل؟... فقال:-

﴿العُجْبُ دَرَجَاتٌ؛ مِنْهَا أَنْ يُزَيَّنَ لِلْعَبْدِ سُوءُ عَمَلِهِ، فَيَرَاهُ

(١) سورة البقرة/آية/(١١-١٢).

(٢) سورة الكهف/آية/(١٠٣-١٠٤).

**حَسَنًا فَيُفَجِبُهُ، وَيَحْسَبُ أَنَّهُ يُحْسِنُ صُنْعًا، وَمِنْهَا أَنْ يُؤْمِنَ
الْعَبْدُ بِرَبِّهِ، فَيُؤْمِنُ عَلَى اللَّهِ، وَلِلَّهِ عَلَيْهِ فِيهِ أَلْمَنَةٌ^(٣)**

إنَّ الجهل الذي يُعاني منه هذا الصنف من الناس، هو الجهل بمعنى الحياة، أو بالهدف الذي يجب أن يسعى إليه الإنسان، أو الجهل بما سينتج عنه فعله الهدّام، وما سترتدُّ عليه وعلى الجماعة وعلى مشروع العمل والنشاط والقضية التي يُمارسها من ضرر وتخريب.

٢- غياب الإحساس بالمسؤولية؛

ومن دواعي التحوُّل إلى الهدم والتخريب، وتغليب المصلحة الشخصية على مصلحة الجماعة المشروعة، أو الخيرية العامة، هو غياب الإحساس بالمسؤولية، بغياب روح التقوى، ومخافة الله ﷻ، وضعف الشعور الأخلاقي، فمثل هذه الأنماط من الناس تتصرّف وكأن لا حساب ولا مسؤولية تقع على عاتق الإنسان الذي يقف عائقاً أمام عمل الخير، وأن ليس هناك لقاء مع الله ﷻ، فقد جعل كلَّ همّه الدنيا، وما يتوهمه من مكاسب الحطام هي الغاية النهائية في حياته الدنيوية.. ولو أنه عرّض نفسه للمحاسبة والوقوف بين يدي الله ﷻ، وقفة تأمل وعودة إلى الصواب لاكتشفَ الخطر الكبير على نفسه وغيره من تلك المواقف الهدّامة تجاه شخصيات الآخرين وأعمالهم ومشاريعهم وجهودهم.

(٣) الكليني، الأصول من الكافي، ج ٢/ص ٣١٣.

إنَّ الإنسان المؤمن ينطلق في عمله ونشاطه الاجتماعي وفق القيم والموازن الشرعية لخدمة المجتمع، وهذا الانطلاق يجعل من عمله الإصلاحي والخيري عملاً تعبدياً يرجو به وجه الله، ومع غياب هذه الروح والتوجهات يتحوّل العمل والنشاط الخيري إلى معنم شخصي يتصارع عليه أولئك الذين استحكمت فيهم النزعة الذاتية والأنانية.

٣- الأنانية؛

الأنانية هي السبب الأخطر في عصرنا، عصر العلم والمعرفة الذي يمكن فيه الحصول على دراسات ومعلومات تُجنّب الإنسان مخاطر الجهل، لكنه يقف عاجزاً أمام الأنانية العمياء التي لا تبصّر حتى مصلحتها في حركة الجماعة، ونشاط المجتمع وعطاء المشاريع والجهود الجماعية خديماً كان أو فكرياً أو اجتماعياً أو غير ذلك، فكم من المتعلّمين والمنقّفين لا يمكن التعامل معهم عندما يكونون أعضاءً في جمعية أو نادٍ أو حركة اجتماعية أو مؤسسة خيرية أو ثقافية أو علمية أو مالية، يتحوّل جهدهم ونشاطهم وذكاءهم وقدرتهم على التخطيط والإبداع إلى الاستحواذ الأناني، وإلغاء الآخرين، وتحجيم دورهم، فيتحوّل الجهد والعمل في داخل تلك المؤسسة، وذلك المشروع من عمل تعاوني ونشاط بناء إلى هدم وصراع وتخريب، واستهلاك للطاقة والجهد والوقت، فيبدأ التآكل في المشروع وتحوّل عملية البناء إلى نشاط ذاتي يستهلك

كلَّ الجهود البناءة فتحوَّل تلك الظاهرة الإيجابية إلى مرض يستعصي علاجه.

وبالتالي تخسر تلك العناصر الأتانية جهودها، كما أنها تخسر جهود الآخرين، وتعجز عن إدارة العمل في المشروع الثقافي أو السياسي أو الخدمي أو المالي فيتحوَّل المشروع والمؤسسة إلى حالة شكلية وعنوان أجوف مُفرَّغ من الحيوية والنشاط وعاجز عن استقطاب المشجِّعين له ويفقد مساندة المجتمع في الجانبين المادي والمعنوي، وبذا يُغلق الإنسان الأتاني على نفسه آفاق النمو والتطور وتحقيق الأهداف ويضع الحواجز بينه وبين الآخرين.

الفصل الثاني

المبحث الثاني

مِنْ مَظَاهِرِ الْأَنْانِيَّةِ فِي حَيَاةِ الْإِنْسَانِ

مِنْ مَظَاهِرِ الْأَتَانِيَّةِ فِي حَيَاةِ الْإِنْسَانِ

وللإنانية مظاهر عديدة، تتجسّد في سلوك الإنسان وأوضاعه الفردية والاجتماعية، أبرزها:

أ- التفرّد بالرأي:

إنّ أبرز مظاهر الأتانية في العمل الجماعي التي تُعيق نجاح الجهد الجمعي هو الرغبة الفردية العارمة في الاستحواذ على الأعمال والمصالح والمنافع ومجالات الظهور الاجتماعي، ويعمل الشخص الأتاني على إلغاء دور الآخرين أو تحجيم أنشطتهم، واعتبار كلِّ مَنْ يعمل معه خطراً عليه وليس مكملاً لجهده ونشاطه. ومن مظاهر الأتانية الخطيرة في العمل الجمعي: هو فرض الرأي الفردي على الآخرين، ومصادرة آرائهم، انطلاقاً من فهمٍ خاطئ يتبنّاه الشخص الأتاني لنفسه ورأيه، فيسوقه هذا الفهم إلى عدم احترام الرأي الآخر، وإقناع نفسه بأنّ الآخرين ليس بوسعهم أن يفكروا أو يُخطّطوا أو يرتقوا إلى مستوى تفكيره، بينما الموقف الصواب في العمل الجماعي هو التكامل في الجهود الفكرية والماديّة والأدبية، وفسح المجال أمام الطاقات والآراء لتأخذ طريقها ولتوظّف كلّ الطاقات والآراء في مجالها البناء، وعندما تلتفت وتتشرنق هذه العناصر حول نفسها، فإنّها تصنع جداراً يعزلها

عن الآخرين وتحوّل إلى مشكلةٍ داخل النشاط الجمعي، فتنتهي بالعمل إلى الإعاقة أو التمزيق والانشطار أو الانحلال والفشل.. ويزداد الخطر عندما يتحوّل المشروع الخدمي والمؤسسة الخيرية والعمل ذو الأهداف الاجتماعية إلى مشروع نفعي ومغنم شخصي يتنازع على الاستحواذ عليه ذوو الشخصيات الأنانية واستخدامه كأداة للبروز الاجتماعي، وتحقيق المكاسب الماديّة النفعيّة، والتحوّل من الهدف الخيري والإصلاحي العام إلى الهدف النفعي ذي المصلحة الشخصية البحتة، وهنا تبرز مظاهر الهدم والتخريب، والممارس لهذا العمل هو عنصر هدام ومُخرّب.. إنّه يُمارس هدم الأهداف العامة، ويحوّلها إلى أهداف ومنافع شخصية، إنّ (الأنا) على المستوى الفردي عالم قائم بذاته.. أحاسيسه ومشاعره، لذّاته وآلامه، أفراده وأتراحه.. حبه وبغضه، مصالحه ومضاره، تحركه (الأنا) وكأنّه وحيد في عالم الموجودات، لا شيء غيره، بل لا يريد أن يرى أحداً ينافسه في شيء، بل ويسعى إلى أن لا يُشاركه أحد.. لو استطاع أن يقبض على الأرض وما حوت، والفضاء وما اشتمل عليه، لفعل.

الأنانية: استغراق مَرَضِي في حبّ الذات، يُعبر الإنسان المُصاب بمرض (الأنا، الأنانية) عن هذا الشعور بطُرقٍ شتّى وبأنماط متعدّدة من السلوك: كالاستئثار بالمال، وكالحسد، والحقّد، وحرمان الآخرين، ووضّع العقبات أمامهم لئلاّ يتقدّموا في الحياة

فيكون نجاحهم مصدر خطر عليهم، وكم ركزت الدراسات النفسية اهتماماتها على هذه الظاهرة الخطيرة وأثرها الهدّام في السلوك على المستوى العام والمستوى الشخصي.

الإنسان الأناني يُمثّل حالة مَرَضِيَّة في الحياة الاجتماعية، ولذا عملت التربية الإسلامية على تحرير الإنسان من الأنانية، وعبادة الذات، وتصحيح سلوك الإنسان على أساس توازن العلاقة بين (الأنا) وذات الآخرين، لتتوازن الحياة الاجتماعية.

وكم هو دقيق القانون الأخلاقي الذي ثبّته الرسول ﷺ كأساس لبناء السلوك الإيجابي في قوله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ): -

﴿لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ﴾^(١)

إنّ هذا القانون الأخلاقي يقوم على أساس عقيدي وإيماني.. فالإيمان في حقيقته كما يوضحه الرسول الكريم ﷺ عقيدة تتجسّد سلوكاً اجتماعياً في حياة الإنسان، وليس الإيمان عقيدة نظرية، ومسلمات تجريدية فكرية، فالإيمان الحقيقي لا يتحقّق في حياة الإنسان، إلاّ إذا أحبّ للآخرين ما يُحبُّ لنفسه، وكره لهم ما يكره لها، عندئذٍ يتحرّر من (الأنا)، وعبادة الذات، ويُفكّر في مصلحة الجماعة، ويندمج معها، وتتوازن في نفسه وعقيدته وسلوكه مصلحة الذات مع مصلحة الآخرين.

(١) الشهيد الثاني، منية المرید/ص ١٩٠، صحيح البخاري/ج ١/ص ٩٥.

ولا تقف التربية الإسلامية، والسلوكية الإيمانية إلى حدّ الموازنة بين مصالح الذات ومصالح الآخرين، بل وتتسامى الدعوة الأخلاقية في الإسلام إلى أن تُربّي الإنسان على الإيثار. والإيثار هو تقديم الغير على النفس، وإلى هذه السلوكية دعا القرآن الكريم بقوله:-

﴿... وَيُؤْتِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ...﴾^(١)

وكم أتى القرآن على الإمام عليّ وأهل بيته (عليهم السلام) عندما تصدّقوا بطعامهم على اليتيم والمسكين والأسير، وظلّوا هم من غير طعام مع حاجتهم إليه.

جاء ذلك في قوله (تعالى):-

﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا﴾^(٢)

ولأهميّة الإيثار في السلوكية الإسلامية نرى الرسول ﷺ

يُحذّر الناس من الأثرة والاستيثار من بعده، فيقول:-

﴿سيكون بعدي أثر﴾

ب- الجشع المادي والدكتاتورية السياسية:

نلاحظ مظاهر الأنانية في الحياة الاقتصادية، تتجسّد في سلوك ذلك الإنسان الجشع المُستأثر، عندما يحتكر الطعام والدواء والسلع التي يحتاجها الناس ليضطرّهم إلى دفع سعر أعلى من السعر الذي

(١) سورة الحشر/آية/٩.

(٢) سورة الإنسان/آية/(٨-٩).

كان سائداً للمواد قبل عملية الاحتكار، وبهذا السلوك الاحتكاري كأنَّ المحتكر يقوم بامتصاص دماء الناس المحتاجين لتلك المواد، أو عندما يُقرَّر ربُّ العمل تخفيض أجور العمَّال الذين يعملون عنده بذلك يهضم حقوقهم.

المُحتكر: إنسانٌ يُعاني من عقدة مرَضية تدفعه نحو هذه الممارسة العدوانية التي تستحوذ على قُوت الناس وجهودهم وضروريات حياتهم، لذا منع الإسلام الاحتكار قانونياً وألزم السلطة بإجبار المحتكر على البيع بأسعار معقولة اقتصادياً، ليحمي المجتمع من شرور هذه العقدة الأنانية، وأمرَ بالعدل وأن لا أحد يبخس الناس أشياءهم، فيعطي صاحب العمل العامل والمنتج الذي يُقدِّم الخدمات ما يُناسب جهده وقيمة عمله.

ومرض الأنانية هو الدافع نحو السلوك الدكتاتوري والعدواني في عالم السياسة وقَمَع الآخرين والاستحواذ على مقدرات الحياة السياسية.. والأناني لا يُضحِّي بشيء، ولا يُشارك في الحياة الاجتماعية، إلاَّ إذا قَدَّر أن يكون له من الربح أكثر ممَّا يعطي الآخرين.

وكما أنَّ في الإسلام تربية أخلاقية على الإيثار وحُبِّ الخير للجميع، ففي الإسلام تكاليف وتشريعات قانونية تضحوية تُخرج الإنسان من دائرة (الأنا) الفردي إلى التفكير بمصلحة الجماعة، ولو أنَّ ذلك كَلَّف الإنسان التضحية بمصلحته الشخصية، بل اعتبر

الرسول الكريم محمد ﷺ مَنْ لَمْ يُفَكِّرْ بِشُؤْنِ الْمُسْلِمِينَ وَلَمْ يَهْتَمَّ بِأُمُورِهِمْ، فَلَيْسَ مِنْهُمْ.. إِنَّ الرَّسُولَ ﷺ يُغْنِي صِفَةَ الْإِيمَانِ الْحَقِيقِيِّ مِنْ أَوْلَادِكَ الَّذِينَ لَمْ يَهْتَمُّوا وَلَمْ يَفَكِّرُوا بِمَصَالِحِ الْمَجْتَمَعِ، جَاءَ ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ): -

﴿مَنْ أَصْبَحَ وَأَمْسَى وَلَا يَهْتَمُّ بِأُمُورِ الْمُسْلِمِينَ فَلَيْسَ بِمُسْلِمٍ﴾^(١)

(١) الكليني، أصول الكافي/ج ٢/ص ١٧٠، دار التعارف للمطبوعات/بيروت.

الإِسْلَامُ.. وَحُقُوقُ الْمَجْتَمَعِ

من أمثلة التكليف القانوني لخدمة الجماعة، هو واجب الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ووجوب الدفاع حتى وإن كلفه ذلك حياته، ووجوب إنقاذ الآخرين (مع القدرة) من الكوارث والمخاطر التي تُهدد حياتهم أو كرامتهم، قال رسول الله ﷺ:-

﴿مَنْ رَدَّ عَنْ قَوْمٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ عَادِيَةَ مَاءٍ أَوْ نَارٍ، وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ﴾^(١)

قال الله (سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى):-

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾^(٢)

ومثل هذه المهمة قد تكلف الإنسان حياته وماله وراحته، وتجلب عليه الأذى والاضطهاد كالسجن، ومصادرة الأموال والتشريد وتعكير صفو الحياة.

وكم أقدم المصلحون على تحمل تلك التبعات برضا وتضحية، مؤثرين على أنفسهم إصلاح المجتمع ومقاومة الظلم والفساد

(١) الكليني، أصول الكافي/ج٢/ص٧١، ط. دار التعارف/بيروت.

(٢) سورة النساء/آية/٧٥.

وراحة الآخرين، في حين يكونون هم الضحية التي تتحمل المشاكل والأذى والتضحية بالمال والنفس والراحة، استجابة للتكليف الشرعي والإنساني والوطني الذي أوجبه الشريعة الإسلامية.. وهذه التضحية والإيثار والانتصار على (الأنأ) له ما يقابله عن عوض، وهو الجزاء الأخروي الذي يرجوه المؤمنون بالله وبِعالم الآخرة.. إنَّ الضمانة لحلِّ أزمة الصراع بين مصالح الذات و(الأنأ) من جهة، وبين مصالح المجتمع وإحداث التوازن النفسي والاجتماعي من جهة أخرى، هو الإيمان بالله وبالجزاء الأخروي.. وكلما ازداد الإيمان، تَخَلَّى الإنسان عن الأنانية والأثرة وترسَّخ في نفسه مفهوم الإيثار وتقديم مصلحة الآخرين، ازداد مكسبه الذاتي ممَّا أعدَّ اللهُ ﷻ للمؤثرين على أنفسهم في عالم الخلود والبقاء.. يوضح القرآن هذا العوض بقوله:-

﴿...وَمَا تَقْدِمُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(١)

وهكذا يكون التَّخَلَّى عن الأنانية طريقاً إلى تحقيق أرقى المكاسب للذات ولكن في عالم آخر.. وليس هذا فحسب، بل وفي الحياة الاجتماعية اليومية تُعطي هذه السلوكية ثمارها، عندما تسود هذه الروح ويُفكَّر الجميع في مصلحة الآخرين وإيثارهم تحدث حالة التوازن بين الفردية والمصلحة الجماعية، ويعود النفع على الجميع

(١) سورة المزمل/آية/٢٠.

ويتخلّص المجموع من الطغيان الفردي والأثانية والاستثناء.

ج- الحسد:

ومن دوافع الهدم الأثاني هو الحسد، فالحسود لا يستطيع أن يرى الآخرين وقد تفوقوا عليه، في موقعهم الاجتماعي، أو الفكري، أو السياسي، أو المادي... الخ، أو أن يجري الخير على أيديهم فيقبل الناس على ما عندهم من عمل ونشاط، أو تكون لهم نشاطات وكفاءات متفوقة عليه، لاسيما إذا كان له عمل ونشاط مماثل، ويلجأ هذا الصنف من مرضى النفوس إلى سلوكية سلبية عدوانية، يلجأون إلى الهدم والانتقام والتخريب بدافع الأثانية والحسد.. فهو بدلاً من أن يتخذ أسلوب المنافسة المشروعة، ويعمل على بناء نفسه، وتوظيف جهده البناء، يدخل في عملية هدم وانتقام من الآخرين، وإعاقة مشروعهم وجهدهم بشتى الوسائل والأساليب، من انتقاص قيمة عملهم، والتأليب عليهم، والطعن في نزاهتهم.... الخ.. لذا اعتبر القرآن الحسد شراً مستطيراً، جاء ذلك في قوله (تعالى):-

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ * وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ * وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ * وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾^(١)

ولخطورة هذه الصفة الذميمة على الفرد والجماعة وصفاها

(١) سورة الفلق/آية/(١-٥).

القرآن بأنها شرٌّ، ذلك لأنَّ الحسد (كما عُرِّفَ) هو: ((تَمَنَّى زوال
نعمة من مُستحقِّ لها، وربَّما كان مع ذلك سعي في إزالتها))^(١)
ورويَ عن رسول الله ﷺ :-

﴿الْمُؤْمِنُ يَغِيبُ وَالمُنَافِقُ يَحْسُدُ﴾^(٢)

ورويَ عن رسول الله ﷺ قوله :-

﴿يَا عَلِيُّ، إِيَّاكَ مِنْ ثَلَاثٍ: الْحَسَدُ وَالْحِرْصُ وَالنَّكْبُ﴾^(٣)

وحذَّرَ الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام من الحسد بقوله :-

﴿إِنَّ الْحَسَدَ لِيَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ﴾

فالحسود شرير هدام، يسعى في إزالة نعمة الغير، ويتمنى
زوالها.. وبهذا الاتجاه السلبي يُكرِّس جهده في صراع ضدَّ
الآخرين، سواء أكان يعمل ضمن جماعة، أو مؤسَّسة، أو مشروع
جماعي، أو كان منفرداً، أو خارج ذلك النشاط.. وقد ساق القرآن
قصة ابني آدم عليهما السلام، مثلاً مُروِّعاً للحسد والأناية وروح الانتقام من
الآخرين لنجاح أعمالهم ومشاريعهم التي يقومون بها حتى لو كانت
عبادة.. فمن خلال الحوار الذي دارَ بين الأخوين تجسَّدت نفسية
الحسود الحاقد على الآخرين الذي لا يطيق رؤية غيره، وقد أدَّى
عملاً ناجحاً أو حقَّق موقِعاً اجتماعياً مُتفوقاً عليه، لذلك حرصَ
القرآن على أن يتلو هذه الحادثة المُعبِّرة عن أسوأ وضع سلبي

(١) (٢) الراغب الاصفهاني، معجم مفردات ألفاظ القرآن.

(٣) الحرّ العاملي، وسائل الشيعة/ج٦/ص٢٩٣.

هدّام، على مسامع البشرية عبر أجيالها المتعاقبة، لتكون عبرة وموعظة لأولي الألباب، قال (تعالى) مخاطباً نبيّه الكريم:-

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنِي آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتَقَبَّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ * لئن بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لَتقتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطِ يَدَيْ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ * إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ * فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الخَاسِرِينَ﴾^(١)

وهكذا ينتهي الصراع بين أخوين عاشا طيلة حياتهما مترافقين.. نهاية مروعة، لا شيء إلا لأن أحدهما تقبل عمله من قبل الله ﷻ ونجح في فعله، ولم يتقبل من الآخر، ولم ينجح في عمله، لسوء فعله وسريرته، لقد انتهى الموقف إلى القتل والانتقام، فلم يكن الحسود ليطبق رؤية أشخاص وأعمال وأنشطة متفوقة عليه، ولم يتعامل مع الموقف بطريقة إيجابية بناءة، بأن يفكر في إصلاح نفسه، ويحسن عمله، فيتحقق النجاح لجهده ومشروعه، بل انطلق من دوافع الهدم والسلبية والتفكير في القضاء على صاحب المشروع والعمل المعوق، فانتقم منه بالقتل، إنها جريمة الإنسان الأولى على هذه الأرض، تحكي قصة الأثاني الحسود، وتصور طبيعة العدوانية الهدّام، إن هذا الصنف من السلوك ينطبق على

(١) سورة المائدة//آية/(٢٧-٣٠).

فاعله، قوله (تعالى):-

﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمَلِكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا * أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ...﴾^(١)

د-غيرة المرأة غير الطبيعية:

ومن مظاهر الأنانية الهدامة: الغيرة الشديدة عند المرأة، التي تحوّل حياتها وحياة الزوج والأسرة إلى جحيم لا يُطاق. فهي تريد أن يكون زوجها ملكاً لها، إنها تغار من صِلته الحسنة مع أمّه وأرحامه وإخوانه، وتعتبر ذلك مضايقة لعلاقتها به، فهي تريد منه أن يقطع أو يُقلصَ علاقته مع الناس جميعاً، ولا يُحسن إلى أحد من الرجال والنساء لاسيّما من تتصوّر أنّها ستكون زوجة له، لذا تراها تُحاسبه على تأخره عن الوصول إلى البيت في الوقت المألوف، وعلى مساعدته وإحسانه للآخرين، وتراقب حركاته وتواجهه بحسّاسية مُفرطة من أن تكون له اهتمامات بالآخرين من الرجال والنساء، حتّى ولو كانت تلك النساء أمّه، أو خالته، أو أخواته، أو ذي رحمه، وكم تتسبّب الغيرة تلك بهدم الحياة الأسرية وتعكير صفو العلاقة الزوجية، لذا اعتبر الرسول الكريم ﷺ حُسن تعامل الزوجة مع زوجها وانتصارها على تلك الحسّاسية المرصّية جهاداً.. قال (صلى الله عليه وآله وسلّم):-

﴿جِهَادُ الْمَرْأَةِ حُسْنُ التَّبَعْلِ﴾^(٢)

(١) سورة النساء/آية/(٥٣-٥٤).

(٢) الشيخ الصدوق/الهداية/ص ٦٠.

الفصل الثاني

المبحث الثالث

مِحْنَةُ الْإِنْسَانِ.. تَكْمُنُ فِي أَزْمَةِ الْأَخْلَاقِ

محنة الإنسان.. تكمن في أزمة الأخلاق

إنَّ محنة الإنسان الأساسية ومشكلته الاجتماعية الكبرى تكمن في عدة محاور، ومنها: الأزمة الأخلاقية، والأمراض والعقد النفسية التي يُعانيها أولئك المرضى في المجتمع، لذا فإنَّ البداية والمنطلق في بناء المجتمع هو بناء الشخصية على أسسٍ فكريةٍ ونفسيةٍ وعاطفيةٍ سليمةٍ.. والقرآن يوضح هذه الحقيقة بقوله:-

﴿...إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا

بِأَنْفُسِهِمْ...﴾^(١)

والتغيير الاجتماعي بكلِّ أبعاده، من الأمن والاقتصاد والسياسة والعلاقات الاجتماعية، لا يكون إلا بعد حصول التغيير في أعماق الذات البشرية، وتكوين شخصية تتمتع بالصحة النفسية المستقرّة، وطريق ذلك هو التربية والاتّجاه إلى الله ﷻ، وتكوين بيئة اجتماعية وأسرية صالحة.

النَّمَامُ.. مُخْرَبٌ هَدَّامٌ:

ومن مظاهر السلوك السلبي الهدّام الذي يهدم بنية الجماعة والأنشطة في المشاريع والعلاقات الاجتماعية موضوع (النميمة)، فالنَّمَامُ مُخْرَبٌ هَدَّامٌ يسعى لهدم العلاقات الاجتماعية وتخريب روابط

^(١)سورة الرعد/آية/١١.

المحبّة والتعاون، ويُلَوِّثُ روح الأخوة، ويضع الحواجز النفسية بين الناس ليُفَرِّقَهُم، وَيُحَقِّقُ أهدافه الهدّامة.. وكم من أسرة هُدِّمَتْ وانهار بناؤها، وتشرّد أبناؤها، وانتهى كيان الأسرة بالفرقة والطلاق، أو التمزّق والتشتّت، بسبب الوشاية والنميمة.. وكم من علاقات وثيقة قد تداعت بين عناصر متألّفة في عملها، ومتعاونة فيما بينها، ضمن إطار عمل ثقافي، أو نشاط سياسي، أو خدمي، أو مشروع برّ وإحسان، قد عمل النّمّامون والوشاة على زرع الفرقة والخلاف بينهم، فتصدّعت الروابط والعلاقات وانهارت الثقة ودُمّرت روح التعاون والتفاهم التي كانت سائدة بين الجميع.

إنّ الوشاة والنّمّامين عناصر هدم وتخريب يجب التنبّه لخطرهم التخريبي الهدّام والحذر منه، فإنّ من الخطأ أن يُصدّق الواشي أو يُستَمَعَ إلى قول النّمّام، سواء كان عاملاً في صفوف مؤسسة، أو مشروع، أو عمل جماعي، أو فرداً من أفراد الأسرة، أو ذا قربي، أو ذا علاقة اجتماعية.. إنّ من الحكمة والوعي الناضج، والفهم السليم أن لا يستجيب الإنسان ولا يقبل كلّ ما يسمع من قول في الآخرين الذين تربطه بهم روابط قربي، أو عمل اجتماعي، أو علاقة اجتماعية، بل الواجب الشرعي والعقلي يفرض على المتلقّي التأمل والبحث والتدقيق فيما يُنقل إليه، قبل أن يُصدّق، أو يُرتّب الآثار والمواقف، قال (تعالى) في سورة الحجرات/آية/٦:-

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾

لقد حرّمت الشريعة الإسلامية النميمة والوشاية، ووقفت من الوشاة والنّمّامين موقفاً صلباً، ويصِفُ الرسول ﷺ النّمّامين، بأنّهم شرار الناس، فيقول:-

﴿أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِشَرَارِكُمْ؟...﴾ (قالوا: بلى يا رسول الله، قال) الْمَشَاءُونَ بِالنَّمِيْمَةِ، الْمُفْرَقُونَ بَيْنَ الْأَحْبَةِ، الْبَاغُونَ لِلْبِرَاءِ^(١) الْمَعَايِبِ^(٢)

الفرقة والنزاع.. هدم وتخريب:

ويتحدّث القرآن عن أسوأ حالات الهدم والتخريب في بناء المجتمع والجماعة، وهو الفرقة والنزاع، فالفرقة والنزاع هدم للبناء الاجتماعي والأنشطة الجماعية في داخلها.. ويتخذ النزاع أشكالاً وأنماطاً متعدّدة، ينطلق من الجهل، والأنانية، أو ضيق الأفق عن تقبّل الآخرين، أو حُسن التعامل معهم، واستيعاب أفكارهم، وحركتهم، وأخطائهم القابلة للاستيعاب، لمن يعمل معهم، أو يكون جزءاً منهم، كأمة أو مجتمع موحد.. فالفرقة والنزاع الطائفي، والسياسي، والمؤسّسي، والعشائري، والعنصري، والإقليمي، والذاتي... الخ، ينطلق من روح عدوانية، هدّامة، تنزع لهدم البنية

(١) البراءة: جمع بريء.

(٢) الكليني، الأصول من الكافي ج ٢/ص ٣٦٩.

الاجتماعية، والعدوان على الآخرين.. لذا حذّر القرآن الكريم من هذا السلوك الهدّام، حذّر من الفرقة والنزاع بقوله:-

﴿...وَلَا تَنَارَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ...﴾^(١)

﴿...أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ...﴾^(٢)

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ...﴾^(٣)

﴿...كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾^(٤)

إنّ التنازع السياسي، أو الطائفي، أو الأثافي والتكتلي، هو معوّل هدم في بناء الأمة ووحدها النفسية، والفكرية، والمادية، وتعريض الأمة للخطر أمام أعدائها.. إنّ النزاع يدمر طاقاتها ويذهب بقوتها (ريحتها)، لذا حذّر القرآن منه وحرّمه، ودعا للوحدة والتآلف، والتفاهم، والتآخي، واعتبر الأخوة نعمة وفضلاً من الله.

قال (تعالى):-

﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا وأذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون﴾^(٥)

(١) سورة الأنفال/آية/٤٦.

(٢) سورة الشورى/آية/١٣.

(٣) سورة الأنعام/آية/١٥٦.

(٤) سورة المؤمنون/آية/٥٣.

(٥) سورة آل عمران/آية/١٠٣.

يُهَدِّمُونَ الْأَمْجَادَ:

ومن الذين يُهَدِّمُونَ ما بنى الآخرون من خير وبركة طيبة وعمل صالح، هم أولئك الهدَّامون من الأبناء، والوارثون للأمجاد، الفكرية، والاجتماعية، والحضارية، والعلمية.. الذين يُسيئون إلى تلك الأمجاد، وذلك الأثر الطيب.

فكم من الأبناء انحدر من أسرة كريمة، عُرِفَتْ بمكانتها الاجتماعية المرموقة، ودورها العلمي، وذكرها الحسِن، فكان وفق امتداد الحياة الاجتماعية هو الوارث لهذا المجد، لتلك السُّمعة الطيبة، والمكانة المرموقة، كما ورثَ المال والممتلكات.

غير أنه يُسيء بسلوكه المُشين وسُمَعته السيئة إلى ذلك الميراث الكريم والمجد الرفيع، فيهدمه ويصنع صورة سيئة لعائلته وأسرته في المجتمع.. إنَّه عنصر هَدَّام، هدمَ ما بناه الآباء والأجداد من أبنية الخير، وكم من جيل، ومجتمع، وجماعة، ورثوا من الماضين تراث المجد والخير، فتتكروا له واستخفوا بفكره وقيمه، وأساعوا إليه، فخسروه، وتسببوا بخسارة الآخرين له.

الكلمة الهدامة:

الكلمة التي يُطلقها الإنسان تجاه الآخرين بغير حساب ولا تقدير سليم، فيهدم ما بناه من علاقات وأخوة وإصلاح، ويترك الأثر النفسي السيئ بما يصدر عنه من عبارات مُنفرة، وكلمات مُؤذية

جارحة.. بل كم من مشكلة أوشكت على الحلّ والحسم في مجلس الإصلاح أو الحوار، فيُطلق أحد الحاضرين كلمة يستفزُّ بها طرف المشكلة، أو يُثير قضية للجدل، فتتأرجح جهود الإصلاح وتهدم مساعي الخير ويزداد الموقف تعقيداً، وصدق الرسول الكريم ﷺ القائل:-

﴿رَحِمَ اللَّهُ امْرَأَةً قَالَتْ خَيْرًا فَقَنِمَ، أَوْ سَكَتَ فَسَلِمَ﴾

وكم هو جميل القول المأثور: ((يسع الصمت ما لا يسع الكلام))
وكم من علاقة طيبة بين الأصدقاء، أو ذوي رحم، والقربى، والحوار، هُدمت بسبب كلمات جارحة هدامة أطلقها هذا أو ذاك.
إنَّ للكلمة حسابها وميزانها الذي يجب أن تُوَزَنَ به، فيجب علينا أن نُفَكِّرَ فيما نريد التحدُّثَ به، وما يُنتجُه من آثار وردود أفعال لدى الآخرين، فلا نتحدَّثَ بما يحدث المشاكل، أو يحول دون حلِّها، أو يُسيء إلى الآخرين، فيجرح مشاعرهم، ويضع الحواجز النفسية بيننا وبينهم.

وكم هو رائعٌ وصَفَّ القرآن للكلمة الطيبة، والكلمة الخبيثة، ومقارنته بينهما، لنقرأ ما سجَّل القرآن ولنتأمَّل، قال (تعالى):-

﴿.... ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ* تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا....﴾^(١)

(١) سورة إبراهيم عليه السلام آية/٢٤.

الْمَنْ.. يهدم المعروف:

وثمة سلوك هدام آخر، يُمارسه البعض عندما يفعل الخير، ويتعامل مع الآخرين، وهو المَنْ على الآخرين، الذين يعمل لهم معروفًا، أو يُقدّم لهم مالاً للإعانة والمساعدة، فيمنّ بفعله على الآخرين، ويظلّ يتبجّح به ويتباهى، فيبطل بذلك عمله عند الله ﷻ، وفضله واحترامه عند مَنْ أحسن إليهم، وعند الناس الآخرين.. وينهى القرآن عن هذا السلوك الهدّام بقوله:-

﴿قَوْلَ مَعْرُوفٍ وَمَغْفِرَةَ خَيْرٍ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتَّبِعَهَا أَدَىٰ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ* يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ....﴾^(١)

إنَّ المَنْ تجاوز على كرامة الآخرين، وتعبير عن وضع نفسي يُمارسه هذا الصنف من الناس، ربّما انطلق من إحساس بالنقص، فراح يُعبّر عن هذا الشعور بالنقص بإظهار المَنْ والتفضّل على الآخرين، ومحاولة لإشعارهم بتفوقه عليهم وحاجتهم إليه.

سوء القصد.. يهدم بناء الخير:

ويتحدّث القرآن عن صنفٍ آخر من السلوك الهدّام، الذي يُضَيّع عمل صاحبه ويهدّمه، وهو سوء القصد، والانغماس المحرّم في الشهوات، وزينة الحياة الدنيا المحرّمة، كشهوة المال،

^(١)سورة البقرة/آية(٢٦٣-٢٦٤).

والسلطة، والجاه، والجنس، التي تُمارَسُ بعيداً عن منهج الله (تعالى) وشريعته، وعدم التوجّه إليه في العمل، فإنّ ما يعملُه هؤلاء من عمل حسن، باطل ومُحِبَطٌ وإن كان فيه خير يُنتفع به.

قال (تعالى): -

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ* أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(١)

المنافق.. هدام:

وصنف آخر من الهدّامين.. وهم المنافقون الذين يُعجبك قولهم، ويُقنعك منطقتهم.. إنهم يُظهرون هذا الشكل اللفظي الجميل، لإغراء الآخرين وإقناعهم بأنهم مُحبّون للخير، إنهم يتظاهرون بذلك وهم يستبطنون الإساءة والهدم والتخريب، ويُخطّون لذلك.. إنهم أشدّ الناس عداوة للحقّ وأهله، والعمل على تخريبه، فمتى ما تمكّن هذا الصنف من الناس من الهدم والتخريب انكشفت حقيقته، وأظهر ما كان يُضمره ويُخفيه من سوء، وسعى في الأرض مُخرباً هداماً، يعبث بكلّ أبنية الخير، يُدمّر الأرض، يقتل الإنسان والحيوان، ويُخرّب مشاريع العمران والإصلاح.

إنّ القرآن يُصوّر هذا الصنف من الناس الهدّامين بقوله: -

(١) سورة هود/آية/ (١٥-١٦).

﴿وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَفْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ
اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ* وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ
فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا
يُحِبُّ الْفُسَادَ* وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ
بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾^(٢)

التسقيط.. هدم وتخريب:

ومروجو الإشاعات والتهم، والرمي بالفاحشة والتسقيط والتجريح، كلها عناصر عدوانية هدامة.. إنَّ الذي يحبُّ أن تشيع الفاحشة في المجتمع، ويُخطِّط لنشرها، إنما يعمل على هدم قيم المجتمع، وإسقاط أولئك الأشخاص الذين يستهدفهم بعمله الهدام.. إنَّه ينشر التهم والأباطيل لهدم شخصياتهم، والإساءة إلى سمعتهم، ومكانتهم في المجتمع.. إنَّه يرتكب هذا العمل المشين الهدام منطلقاً من الحقد، والشعور بالنقص تجاه الآخرين، وتحكُّم روح الانتقام والعدوانية في سلوكه.

إنَّه شخصية قذرة، لا يريد أن يرى طهارة الآخرين، لذا يرميهم بأسوأ التهم التي تجرح كرامتهم وسمعتهم الاجتماعية.. إنَّه شخصية سادية مريضة، يتلذذ بأذى الآخرين وتعذيبهم النفسي.. لذلك حملَ عليه القرآن بشدَّة وتوعده بالعقاب والعذاب.. قال (تعالى):-

^(٢)سورة البقرة/آية(٢٠٤-٢٠٦).

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^(١)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَنْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾^(٢)

ولذلك قضت الشريعة الإسلامية بعقوبة قضائية بحق المجرم المتجاوز على كرامة الآخرين، فمثل هذا المتجاوز يُحال إلى القضاء ويتلقى العقوبة المقررة في قانون العقوبات.

بائع المحرم.. هدام:

إنَّ الذين يتاجرون بالمحرم والممنوع إنما هم عناصر مُخرّبة هدامة..

إنَّ الذين يبيعون كتب، وأفلام الانحراف الجنسي، والجريمة، ويروجونها مقابل كسب المال الرخيص..

والذين يبيعون المخدرات ويغرون بها الآخرين، إنهم عناصر هدامة، ينطبق عليهم قول الله الحق:-

(١) سورة النور/آية/١٩.

(٢) سورة الحجرات/آية/١١.

**﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ
وَالنَّسْلَ...﴾^(١)**

إنهم جناة يجنون على الأفراد، والأسرة، والمجتمع، فكم من أناس هم ضحايا تجارتهم، وسعيهم المحرم لكسب المال، إنهم أناس تجردوا من الإحساس الوجداني ووازع الضمير، فراحوا يتاجرون بتدمير الإنسانية، بنشر الجريمة والرذيلة والسقوط.

ليُفكر هذا الجاني الذي يبيع أفلام وكتب الجنس الإباحية، أو المخدرات، وأفلام الجريمة والاعتصاب، والعصابات، فليُفكر بضحاياه، وبأنه سيكون هو أحد الضحايا.

إنَّ الإنسان السويّ السلوك الذي يتمتّع بصحة نفسية وسلوكية مستقيمة، هو الإنسان البناء، الذي يعيش كالنحلة، لا يتناول إلاّ طيباً، ولا يصدر عنه إلاّ ما هو طيب، فليسع كلُّ فردٍ منا أن يكون كالنحلة:-

**﴿إِنْ أَكَلْتَ أَكَلْتَ طَيْبًا، وَإِنْ وَضَعْتَ وَضَعْتَ طَيْبًا، وَإِنْ وَقَعْتَ
عَلَى عُوْدٍ لَمْ تَكْسِرْهُ﴾**

^(١)سورة البقرة/آية/٢٠٥.

الفصل الثاني

المبحث الرابع

مبحث تفسيري

مبحث تفسيري

القرآن الكريم زاخر بالعبير والمواعظ لغرض تقديم الشواهد العملية للإنسان لكي يتعظ ويصح مسيرته الحياتية لتكون مطابقة لما أراد الله ﷻ.. والآيات المباركة (٦٨-٦٩) من سورة النحل قدّمت صورة من صور العطاء النافع الذي تقوم بها حشرة صغيرة لكنّ عطاءها كبير ومفيد.. وللتوسّع في تفسير هاتين الآيتين المباركتين اقتبسنا النص التالي من تفسيرنا: (البيان والتبيان في تفسير وتنزيل القرآن)/ج/٢٣/ص(٥٩-٦٦)، فذكرنا ما يلي:

((وقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ* ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾:

النحل: من الحشرات النافعة للبشرية، بما تفرّزه من العسل الذي جعل الله فيه شفاء للناس.

ونقل الأزهري في التهذيب قول الزجاج: ((وقال أبو إسحاق الزجاج في قول الله (جَلَّ وَعَزَّ): ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾، جائز أن يكون سُمِّيَ نَحْلًا، لِأَنَّ اللَّهَ (جَلَّ وَعَزَّ) نَحَلَ النَّاسَ الْعَسْلَ الَّذِي يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا))^(١)

(١) انظر: تهذيب اللغة/للأزهري الهروي/٤٢:٥.

وقد أخبر الله في هذه الآية والتي تليها عن المنهج الذي تسلكه حتى تُخرج لنا العسل من بطونها ليتغذى به الناس ويستشفوا من كثيرٍ من الأمراض، وبين (سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى) أَنَّ سلوكها هذا المنهج بوحىٍ منه (جَلَّ وَعَلَا).

وللوحى في اللغة معانٍ مختلفة، والمراد منه هنا (الإلهام)، وهو ما يخلقه الله في القلب ابتداءً من غير سببٍ ظاهرٍ.

ولا يقتصر هذا الوحي على النحل، بل فضل الله به على كلِّ حيوان فقد ألهمه الله ﷻ ما فيه منافعه فيسعى إليه، وما فيه مضارّه فيجتنبه، وما فيه معاشه فيدبره، حتى لتراه يخترن قوته في الشتاء إذا كان لا يستطيع الظهور فيه والتعرض لبرده، فلهذا يملأ مخازنه بالطعام ويُعقّمه بما يجعله صالحاً ولا يتعرض للفساد، ولم يقتصر هذا الإلهام على الحيوان بل تعدّاه إلى النبات والجماد فإنّ البذور والنوى يُلهمها الله ﷻ أن تتّجه بجذورها إلى أسافل جوف الأرض لتستمسك بها وتتغذى منها، وتتّجه ببراعمها وسيقانها وأوراقها وفروعها إلى أعلى دون أن يطرأ على منهجها هذا أيُّ اختلاف.

وألهم الأرض أن تُغذي جذور النبات، وتيسر لها سبيل التعمق داخلها ولو كانت الأرض صخرية، فكم من غابات وأشجار وأعشاب تثبت في الأرض الجبلية.. هذا إلى جانب ما يتم داخلها من التحوّلات الخطيرة التي تنشأ عنها المعادن والغازات والعناصر المختلفة، وكلُّ ذلك يتمّ بإلهام الله وتدبيره.

ولم يحرمنا القرآن العظيم ولا السنّة المُطَهَّرَة من الإشارة إلى تلك العجائب التي لم يستطع الإنسان أن يكشف الكثير من أخبارها وأسرارها، فالله ﷻ يقول: إنه أمرَ الجبال والطير أن تُؤَوِّبَ في التسبيح وترجّعه مع داود عليه السلام، وذلك في قوله (تعالى) في سورة سبأ/آية/١٠:-

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ
وَالطَّيْرَ...﴾

وفي سورة ص/آية/(١٨-١٩):-

﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ*
وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾

(ومن عجائب إلهام الله للحيوان، ما وقع يوم وصول النبي ﷺ إلى المدينة، حيث تجاذب الصحابة ناقته القصواء وهو عليها، ليكون الرسول ضيفاً كريماً على من يفوز بها منهم، فقال لهم:-

﴿خَلُّوا سَبِيلَهَا فَإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ﴾

فتركوها وأرعى النبي زمامها دون أن يوجّهها، فجعلت تنظر يميناً وشمالاً أثناء سيرها حتى برّكت بفناء بني عدي بن النجار، أمام مربد سهل وسُهَيْل ولدي رافع بن عمرو، ثم ثارت الناقة والرسول عليها حتى بركت أمام باب أبي أيوب الأنصاري.. ثم ثارت وبرّكت في مبرّكها الأول وأرّزمت، أي: صوتت دون أن تفتح فمها، ونزل النبي ﷺ عنها وقال:-

﴿هَذَا الْمَنْزِلُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾

واحتمل أبو أيوب رَحْلَهُ وأدخله بيته، وقال أبو أيوب: المرء مع رَحْلِهِ، فنزل النبيُّ عنده، وأخذ سعد ابن زرارة ناقته عنده^(١) وقصة الهدد العجيبة مع سليمان عليه السلام، وكذا قصة النملة في توعيتها للنمل من أن يحطّمهم سليمان عليه السلام وجنوده، وتعليم الله تعالى سليمان عليه السلام منطِق الطير، كلُّ ذلك واضح في أنّ لها إدراكات ونطقاً وعبارات لا يعلمها إلاّ مَنْ علّمه الله، فلا غرابة في أن يُعبّر الله عن إلهامه للنحل في معاشها بـ(الوحي)، لأنّ لها إدراكات تعي بها هذا الإلهام، فتبارك الله أحسن الخالقين.

والمعنى الإجمالي للآية:

وألهم ربُّك النحل، قائلاً في إلهامه إيّاها: اتّخذي بيوتاً لك، تأوين إليها في الجبال داخل كهوفها ومغاراتها وكوّاهها، وفي الشجر داخل أجوافها وبين أغصانها وفيما يعرّشه ويهيئه لك بنو آدم من العرايش والخلايا ونحوها.

وعرّش: معناها هنا، هيأ، قال القرطبي: ((وأكثر ما يستعمل فيها يكون من إتقان الأغصان والخشب وترتيب ظلالها ومنه العريش الذي صنع لرسول الله صلّى الله عليه وآله))^(٢)

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾:

أي: وكلي أيّتها النحلُ بعضاً من كل الثمرات، وهو رحيق

(١) سيرة ابن هشام/١:٤٩٦.. (٢) تفسير القرطبي/١٠:١٣٤.

الأزهار أساس لثمرات أو من الثمرات نفسها، ويقولون: إنها قد تأكل من الأزهار المرّة، ويعود كل ذلك عسلاً حلواً شهياً.

والأمر في قوله (تعالى) للنحل: ﴿ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾، ليس على حقيقته، بل المقصود منه أنه (تعالى) يسر لها ما تشتهييه من الثمرات لتأكل منه، فتجد نفسها مجبولة على أن تتناول منها ما تريد، كأنها مأمورة بذلك، لتحیی وتؤدي وظيفتها في الحياة، من إفراز العسل لغذاء الناس وشفائهم.

وقوله تعالى: ﴿فَاسْأَلِي سُبُلَ رَبِّكَ ذُلًّا﴾:

أي: فاذهبي طائرة في طرق ربك التي توصلك إلى الحدائق والبساتين، فهي مفتوحة لك في جنبات السماء شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً، مسخرة لك، لا يمنعك عنها مانع فانت نافعة للزراعة، وجالبة للأرزاق، وكما ذللتها الله لك في الغداة وأنت ذاهبة إلى أرزاقك، ذللتها لك في الأصيل وأنت عائدة إلى بيوتك لا تضلين سبلها، فسبحان الله ﴿...الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾^(١)

وقيل في معنى الآية: فاسألني ما أكلت من الأزهار والريحق في مسالكه التي يتجول فيها بقدره الله عسلاً.

ثم أتجه الكلام من مخاطبة النحل إلى الكلام مع الناس في عجائب صنع الله على سبيل الاستئناف، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾:

(١) سورة طه/آية/٥٠.

فيَقْصُ اللهُ علينا في هذه الآية: أَنَّ النحل بعد أن تتناول غذاءها من كل الثمرات، يخرج من أجوافها عسل ألوانه مختلفة تَبَعاً لِلون ما تناولته من الأزهار والثمرات، فقد يكون أبيض، وقد يميل لونه إلى الصفرة أو الحمرة أو نحوهما، كما قد يتأثر برائحتها طيبة أو كريهة، وقد يكون للجو أو لِسِنِّ النحل أثر في ألوان العسل، وقد عبّر عنه بـ «شرب لأته مما يشرب».

وقد بينَ اللهُ ﷺ أَنَّ هذا العسل فيه شفاء للناس، إمَّا مجرداً وإمَّا مخلوطاً بغيره من المعاجين المختلفة، كما كان قُدَامِي الأطباء يعالجون، وقد اعترف الطب الحديث بفوائده في كثير من الأمراض والقروح وليس بلازم أن يكون فيه شفاء لكل الأمراض أو لكل الناس فقد يشفي به مرض في إنسان، ولكنّه لا يشفي به في إنسان آخر، وقد يشفي به مرض ويزيد العلة في مرض آخر، ولهذا لم يُعمَمِ اللهُ ﷺ في لفظ الشفاء، إذ لم يقل: فيه الشفاء للناس، بل قال:-

﴿فِيهِ شِفَاءٌ﴾

بتكثير شفاء للتبويض، ليكون المعنى: فيه بعض الشفاء للناس لا كل الشفاء دائماً.

وقد ذكر قدامى الأطباء أَنَّهُ يُنْقِي الجروح ويُدَمِّلُها ويأكل اللحم الزائد، ويشفي من دموع العين وحكَّتها وجربها كحلاً، وبخاصة مع ماء البصل، وإن أذيب في الماء سَكَنَ المَغْصَ وقطع العطش، إلى

غير ذلك مما كتبتَه كُتِبَ الطب القديم، فأرجع إليها إن شئتَ، فقد كُتِبَتْ عنه كثير من الفوائد والأضرار.^(١)

وهذه الآية دليل على جواز التداوي خلافاً لمن كره ذلك، بل هو مطلوب لقوله تعالى:-

﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾^(٢)

ثم ختم الله الآية بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾

فإنَّ أهل الفِكر حين يرون هندستها البارعة في بناء بيوتها، وتحوُّل طعامها من الثمرات ولو كان مرّاً إلى عسل شهى مختلف الألوان، نافع للأبدان، يستدلُّون بذلك على أنَّ لها ربّاً حكيماً ألهمها وأعطاها من العجب ما يُحيرُّ الأفكار، وما لا يستطيعه الإنسان، ولا يتردّدون في أن يقولوا: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾. (انتهى).

في الآية (٢) من سورة الحشر المباركة تناول القرآن الكريم موضوع الأشخاص الذين يَسْعَوْنَ لإشاعة الكفر بين الناس ويحسبون أنَّهم بعيدون عن غضب الله ﷻ، هذا ما وردَ في الآية (٢) من سورة الحشر، وقد تناولنا تفسير هذه الآية المباركة في الجزء ٣٦٤/ص ٢١١، وما بعدها في تفسيرنا: (البيان والتبيان في تفسير وتنزيل القرآن)، فذكرنا ما يلي:-

(١) أنظر مثلاً: القانون في الطب/لابن سينا/١:٦١٩، وباب ما جاء فيما يُستشفى به من

العسل في كتاب عبد الملك بن حبيب المتوفى سنة ٢٣٨ هـ: العلاج بالأعشاب: ٤٤.

(٢) سورة البقرة/آية/١٩٥.

((وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ:))

هذه الآية بيان لبعض آثار عزته (تعالى)، وإحكام حكمته إثر وصفه (تعالى) بالعزة القاهرة والحكمة البالغة على الإطلاق في الآية السابقة، وعلى هذا فالضمير راجع إلى الله ﷻ.

والمعنى: ذلك المنعوت بالعزة والحكمة: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾، وهم يهود بني النضير، أخرجهم من ديارهم بالمدينة لأول الحشر، بمعنى: عند أول إخراج لهم، والحشر: إخراج الجماعة من مقرهم وإزعاجهم عنه إلى الحرب وغيرها، وكانوا من سبط لم يصبهم جلاء قط، وهم أول من أخرج من أهل الكتاب من جزيرة العرب إلى الشام وغيرها، وآخر حشرهم بإجلاء عمر بن الخطاب إياهم من خيبر إلى الشام، وقيل: آخر حشرهم يوم القيامة.

وكان من شأنكم أيها المسلمون، أنكم: ﴿مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا﴾ لشدة بأسهم، ومنعة حصونهم وكثرة عددهم وعُدَّتْهم. كما كان من شأنهم، أنهم ظنوا أن حصونهم مانعتهم من أمر الله ﷻ.. وكان مقتضى الظاهر أن يقال لمقابلة ﴿مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ

يَخْرُجُوا أن يقال: وظنوا ألا يخرجوا، ولكن عدل إلى ما في النظم الجليل للإشعار بأنَّ ظنَّهم قاربَ اليقين، فَنَاسَبَ أن يُوتَى بما يدلُّ على فرط وثوقهم بما هم فيه بتقديم الخبر وهو **﴿مَانِعْتُهُمْ﴾** على المبتدأ وهو **﴿حُصُونُهُمْ﴾**، للدلالة على الاختصاص والتوكيد، فكأنَّه لا حصنَ أَمنع من حصونهم، ليكون مانعاً من الوصول إليهم.

﴿فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾، أي: نزل بهم أمر الله وقدره المقدور لهم من حيث لم يتوقعوه ولم يخطر لهم على بال، وهو قتل رئيسهم كعب بن الأشرف، فإنه ممَّا أضعف قوتهم، وفلَّ شوكتهم، وسلب قلوبهم الأمنَ والاطمئنانَ، وألبسهم أردية الخضوع والاستكانة، **﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾**: بإلقاء الخوف الشديد فيها بقوة، أو من مكان بعيد، **﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ﴾**: الجملة مستأنفة جواب عن سؤال مُقَدَّر، تقديره: فما حالهم بعد قذف الرعب فيها أو معه؟... فأجيب بالجملة.

والمعنى: يُخْرِبُونَ بيوتهم من باطنها بأيديهم ليسئوا بأخشابها وأحجارها أفواه الأزقة تحصيناً لها وحتى لا تبقى صالحة لسكنى المسلمين والانتفاع بها بعد جلائهم عنها فيزيدهم ذلك ندماً وحسرةً، ولينقلوا ما فيها من جيِّد الخشب والسَّاج معهم، كما كانوا يُخْرِبُونَ تلك البيوت من خارجها بأيدي المؤمنين الذين أرادوا اقتحامها عليهم ليُزِيلُوا تحصنَّهم بها، وليتَّسع مجال المعركة أمام المسلمين فيتسنى لهم الغلبة عليهم، واستئصال شأفتهم فلا تبقى

لهم بالمدينة دار.

ومعنى تخريبهم لبيوتهم بأيدي المؤمنين: أنهم لما عرضوا أنفسهم وديارهم بنكت العهد، وكانوا السبب فيه، فكأنهم أمروا المسلمين به وكفّوهم إياه وبهذا الاعتبار عطفت بأيدي المؤمنين على أيديهم.

﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ﴾، أي: فتأملوا يا أولي العقول والألباب، واتّعظوا بما جرى عليهم من الأمور الهائلة، واتّقوا مباشرة ما أوصلهم إليه الكفر والعصيان، واحذروه واعتدوا على الله وحده حتى لا تُعاقبوا بمثل عقابهم.

لقد حذرت الآيات الكريمتان (١١-١٢) من سورة البقرة المباركة حالة الجهل الذي يتلبس به بعض الأشخاص فيتوهّمون بأنهم أشخاص مُصلِحون وهم يُمارسون أعمالهم لإفساد المجتمع، وقد وضّحنا مقاصد هذه الآيات المباركات في تفسيرنا: (البيان والتبيان في تفسير وتنزيل القرآن)/ج٧/ص(٨٧-٨٨)، فذكرنا ما يلي:-

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ* أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾:

في الآية بيانٌ لعناد المنافقين، وإصرارهم على الفساد، كلّمًا وُجّه إليهم الإرشاد من أيّ ناصح، ولهذا بُني القول للمجهول، فقيل: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾: وإفسادهم في الأرض

كان بإثارة الفتن بين المسلمين، وإفشائهم أسرار المسلمين للكفار وتحريض الجميع - مسلمين وكفار- على الحروب.

وقد كانت الأرض قبل مبعث النبي مليئة بالفساد وبالمعاصي، فلما بُعِثَ النَّبِيُّ ﷺ عمل على إزالة هذا الفساد والقضاء على العصبية الجاهلية، وبذلك تهيأت الأرض للصلاح باستقامة المجتمعات الصالحة عليها، فلما جاء المنافقون، وكان من أثارهم إحياء الفتن بين الناس، قيل لهم: ﴿لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾، أي: بعد إصلاحها بالتعاليم الإسلامية، فكان جواب المنافقين مبنياً على مغالطة كاذبة، إذ قالوا: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾، أي: نحن مقصرون على الإصلاح، ولا نعرف الإفساد، فكيف ننهي عنه مع أننا لم نفعله؟... وإنما قالوا ذلك، لأنهم صوروا الإفساد إصلاحاً، لمرض قلوبهم، على حد قوله تعالى في سورة فاطر/آية/٨:-

﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا....﴾

وقوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾:

هذا هو الردُّ على دعواهم. وهو أبلغ ردِّ لما فيه من: ﴿أَلَا﴾، المُنبِّهة و﴿إِنَّ﴾: المؤكدة، وتعريف الخبر: ﴿الْمُفْسِدُونَ﴾، وتوسيط ضمير الفصل ﴿هُمْ﴾، ونفي الشعور والإدراك عنهم لفساد عقولهم، فصاروا لا يُمَيِّزُونَ بين الخبيث والطيب، ولا يشعرون بالفروق بين الفاسد والصالح.)) (انتهى).

الوهم حالة خطيرة يقع فيها الإنسان إذا لم يَحْتَضِرْ ويتدبَّرَ في

نتائج أعماله، فقد ذَكَرَ القرآنُ الكريمُ هذه الحالةَ في الآيتين المباركتين (١٠٣-١٠٤) من سورة الكهف، وقد وضَّحنا مقاصد هذه الآيات المباركات في تفسيرنا: (البيان والتبيان في تفسير وتنزيل القرآن) ج٢٢/ص (٢٦٩-٢٧٠)، فذكرنا ما يلي:-

(وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾:

قيل: إنَّ المراد بهؤلاء الأَخْسَرِينَ، أهل الكتابين: اليهود والنصارى، ولكنَّ ظاهر الآية الكريمة أنَّها عامَّة في كلِّ مَنْ عَبَدَ اللَّهَ على غير شريعته التي شرَّعها لعباده، يَحْسَبُ أَنَّهُ مُصِيبٌ فِيهَا وَأَنَّ عمله مقبول، ولكنَّه مُخْطِئٌ وعمله مردود عليه.

أي: قُلْ أَيُّهَا الرَّسُولُ لِلْمَشْرِكِينَ خَاصَّةً، وللْكَافِرِينَ عَامَّةً: هل أُخْبِرْكُمْ بِأَشَدِّ النَّاسِ خُسْرَانًا لِأَعْمَالِهِمْ وَحَرْمَانًا مِنْ ثَوَابِهَا؟!... ثم فسَّرهم قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾:

أي: أَنَّ الْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا مِنْ سَائِرِ الْمَلَلِ وَالنَّحْلِ هُمُ الَّذِينَ اتَّعَبُوا أَنْفُسَهُمْ فِي أَعْمَالٍ يَبْغُونَ بِهَا ثَوَابًا وَفَضْلًا، فَنَالُوا بِهَا هَلَاكًا وَخُسْرًا، كَالَّذِي اشْتَرَى سَلْعَةً يَرْجُو بِهَا رِبْحًا عَظِيمًا، فَخَابَ رَجَاؤُهُ وَخَسِرَ بِهَا خُسْرَانًا مُبِينًا.)) (انتهى).

المجتمع الناجح: المجتمع المتفاعل مع الحياة، يمتاز بشيوع حالة التضحية والإيثار بين عناصره، هذه الحالة الاجتماعية الإيجابية تناولها القرآن الكريم في الآية (٩) من سورة الحشر

المباركة، ولغرض تفصيل هذا الموضوع الحساس اقتبسنا تفسير هذه الآية من تفسيرنا: (البيان والتبيان في تفسير وتنزيل القرآن) ج٣٦/ص(٢٢٤-٢٢٧)، فذكرنا ما يلي:

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْنًا نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾:

كلام مُستأنف لمدح الأنصار بخصائص حميدة من جُمَلتها مَدَحُ محبَّتِهِم للمهاجرين ورضاهم باختصاصهم ببعض مال الفيء دونهم وإيثارهم على أنفسهم ولو كان بهم فقر وحاجة، وقد تبوَّءوا الدار والإيمان وتمكَّنوا فيها أشدَّ تمكُّن، ونسبة التبوُّء إلى الدار، والمراد بها المدينة ظاهر، لأن التبوُّء: النزول في المكان، ونسبته إلى الإيمان، باعتبار جعله مُستقرًّا وموطنًا، حيث استقرَّت به نفوسهم واطمأنَّت إليه قلوبهم.

والتعريف في الدار للتبويه كأنَّها الدار التي تستحقُّ أن تُسمَّى داراً، وقد أعدَّها الله لهم ليكونَ تبوُّؤهم إيَّها مَدْحاً لهم، وقيل: والذين تبوَّءوا الدار وأخلصوا الإيمان، وكان تبوُّؤهم للدار والإيمان من قبيل هجرة المهاجرين ولا يلزم منه سبق إيمانهم على إيمان المهاجرين حتى يُقال الأمر بالعكس، بل نهاية ما يلزم عليه سبق إيمان الأنصار على هجرة المهاجرين.

﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾: من إخوانهم المهاجرين، وقد بلغ من سماحتهم أنهم أنزلوهم منازلهم، وأشركوهم أموالهم ونزلوا لهم عن بعض ما يعزُّ عليهم، حتى قيل: إنَّ مَنْ كانت عنده امرأتان نزل عن إحداهما وطلقها حتى يتزوجها رجلٌ من المهاجرين وهم مع كلِّ ذلك لا يجدون في أنفسهم حسداً أو غيظاً ممَّا أُعطيَ المهاجرون من الفيء وغيره ولا مرَّ ذلك بخاطرهم، فضلاً عن أن تطمح إلى شيءٍ منه نفوسهم.

﴿وَيُؤْتِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾: بمعنى أنهم يُقدِّمون المهاجرين علىٰ أنفسهم في كلِّ شيءٍ من الطيبات ولو كان بهم حاجةٌ وخلةٌ، وذلك بتقديم حاجة المحاوِيج على حاجة أنفسهم. وذكرَ المُحدِّثون خبراً مشهوراً، فقالوا:

((أتى رجلٌ رسولَ الله ﷺ فقال: يا رسولَ الله أصابني الجَهُدُ، فأرسلَ إلى نِسائه فلم يجدْ عندهنَّ شيئاً، فقال: -

﴿أَلَا رَجُلٌ يُضَيِّفُ هَذَا الرَّجُلَ اللَّيْلَةَ، رَحِمَهُ اللهُ﴾

فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ.. وفي روايةٍ، فقال أبو طَلْحَةَ الْأَنْصَارِيُّ: أَنَا يَا رَسُولَ اللهِ، فَذَهَبَ بِهِ إِلَى أَهْلِهِ، فَقَالَ لَامْرَأَتِهِ: أَكْرَمِي ضَيْفَ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَتْ: وَاللهِ مَا عِنْدِي إِلَّا قُوتُ الصَّبِيَّةِ، قَالَ: إِذَا أَرَادَ الصَّبِيَّةُ الْعِشَاءَ فَنَوِّمِيهِمْ وَتَعَالِي فَاطْفِي السَّرَّاجَ، وَنَطْوِي اللَّيْلَةَ لَضَيْفِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ففعلتُ، ثُمَّ غَدَا الضَّيْفُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فقال: -

﴿لَقَدْ عَجَبَ اللَّهُ الْبَيْتَةَ مِنْ فُلَانٍ وَقَلَانَةٍ، وَأَنْزَلَ فِيهِمَا
اللَّهُ: ﴿وَيُؤْتِرُونَ...﴾﴾

﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾: لعلَّ المراد
بالشُّحِّ: البخل المتناهي، بحيث يبخل المتَّصِفُ به بمال غيره، أي:
لا يودُّ جودَ غيره وتنقبض نفسه منه، ويسعى في ألا يكون، وقيل:
إنه وإضافته إلى النفس، لأنه غريزة فيها، مقتضية للحرص على
المنع الذي هو البخل، ويفهم من الآية نَمُّ الشُّحِّ ذمًّا بالغاً.

﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ﴾ بتوفيق الله ﷻ ومعونته حتى يخالفها
فيما يغلب عليها من حُبِّ المال وبُغْضِ الإنفاق، فهؤلاء هم
الفائزون بكلِّ مطلوب، الناجون من كلِّ مكروه، والجملة الشرطية
تذييل وتوكيد لمدح الأنصار والثناء عليهم لتناوله إيَّاهم تناولاً
أصلياً، وكانت الإشارة في قوله تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ﴾: جمعاً باعتبار
معنى ﴿مَنْ﴾: كما إفراد الضمير في قوله (سُبْحَانَهُ): ﴿وَمَنْ يُوقَ﴾
باعتبار لفظها.)) (انتهى).

يُعطينا القرآن الكريمُ تجربةَ عمليةٍ للتضحية والإيثار في
الآية (٨-٩) من سورة الإنسان المباركة، ولتفصيل الموضوع
رجعنا إلى تفسيرنا: (البيان والتبيين في تفسير وتنزيل
القرآن) / ج ٣٥ / ص ٢٧٣ وما بعدها، فذكرنا ما يلي:

وقوله تعالى: ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا
وَأَسِيرًا﴾:

في قوله: ﴿عَلَى حُبِّهِ﴾، عدة أقوال:

الأول: وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّ الطَّعَامِ، أي: مع اشتهاؤه والحاجة إليه والرغبة فيه.

الثاني: عَلَى حُبِّ الإِطْعَامِ بَأَن يَكُونَ ذَلِكَ بِطَيِّبِ نَفْسٍ وَعَدَمِ تَكْلُفٍ.

الثالث: عَلَى حُبِّ اللَّهِ ﷻ وَلِوَجْهِهِ (سُبْحَانَهُ) وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِهِ.

والمختار هو الأول، أي: مع حُبِّهم وحاجتهم للطعام فإنهم يُؤَثِّرُونَ المحتاج إليه على حاجتهم إليه، وأَمَّا الإِطْعَامُ نَفْسَهُ فَإِنَّهُ يَقُومُ بِهِ مَنْ بِهِ حَاجَةٌ إِلَى الطَّعَامِ وَمَنْ لَا حَاجَةَ عِنْدَهُ بَلْ فَائِضٌ عَنِ حَاجَتِهِ، وَكَذَلِكَ الْمَعْنَى الثَّلَاثُ، وَهُوَ حُبُّ اللَّهِ ﷻ فَإِنَّ الْغَنِيَّ وَالْفَقِيرَ يَتَصَدَّقُ وَيُطْعَمُ عَلَى حُبِّ اللَّهِ ﷻ مِنْ دُونِ إِثَارِ الْفَقِيرِ بِالطَّعَامِ عَلَى حَاجَتِهِمْ إِلَيْهِ.

وهذا المعنى الذي اخترناه، يناسب سبب النزول الذي سنذكره قريباً وهو كقوله تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تَحِبُّونَ﴾^(١) وتطبيق له.

والظاهر أنَّ المراد بإطعام الطعام حقيقته، وقيل: هو كناية عن الإحسان إلى المحتاجين ومواساتهم بأيِّ وجه كان وإن لم يكن ذلك بالطعام بعينه، فكأنهم ينفعون بوجوه المنافع.

﴿مَسْكِينًا﴾، أي: فقيراً عاجزاً عن الكسب، ﴿وَيَتِيمًا﴾: صغيراً فَقَدَ أباه ولم يبلغ مَبْلَغَ الرجل ولا مال له، ﴿وَأَسِيرًا﴾: هو المُشْرِكُ

(١) سورة آل عمران/آية/٩٢.

بيد المسلمين، ويشهد لهذا أن رسول الله ﷺ أمر أصحابه يوم بدر أن يكرموا الأسارى، فكانوا يقدمونهم على أنفسهم عند الفداء. وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نَطْعِمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾، أي: إنما نطعمكم لطلب ثواب الله ﷻ ورجاء جزائه ورضاه، قائلين ذلك في أنفسهم بلسان الحال، لما يظهر عليهم من أمارات الإخلاص.

﴿لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾، أي: لا نطلب منكم مجازاة تكافئوننا لا بالأفعال كعوض وهدية، ولا بالأقوال كشكر وثناء علينا عند الناس، وهذا تقرير وتأكيد لما قبله.

تَنْبِيْهُ مُهْمٌ فِي قِصَّةِ الْإِطْعَامِ

والآيات الماضية وبعض اللاحقة نزلت بشأن عليٍّ وفاطمة (عليهما السلام) وما فعلاه من إطعام الطعام على حاجتهم له، وقد روى القصة كثير من الباحثين والمؤرخين، وزاد بعضهم أشعاراً قالها الإمام عليُّ (عليه السلام) لكل رغيّف خبز تصدّق به، وتجيّبه فاطمة (عليها السلام) بقصيدة عصماء، وهكذا في الأربعة الثلاثة أو العصيدة التي طبخوها.

ورواها آخرون بتطويل عجيب، وتفصيل تشبه ما في قصص ألف ليلة وليلة، وكأنّ أحداً من المسلمين لم يكن يتصدّق، وقد رأينا الأنصار كيف آثروا المهاجرين بأموالهم وبيوتهم ونسائهم، فقد كان الأنصاريُّ يُطلق إحدى نسائه ليزوّجها مهاجراً من المهاجرين.

وخير من يُخبرنا ما جرى هو حفيد من أحفاد أهل البيت الذين نزلت فيهم الآيات، وقد روى القمي في تفسيره بسنده، قال: ((فإنه حَدَّثَنِي أَبِي، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَيْمُونِ الْقَدَّاحِ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَالَ: -

﴿كَانَ عِنْدَ فَاطِمَةَ (عَلَيْهَا السَّلَامُ) شَعِيرٌ، فَجَعَلُوهُ عَصِيدَةً، فَلَمَّا أَنْضَجُوهَا وَوَضَعُوهَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ جَاءَ مَسْكِينٌ، فَقَالَ الْمَسْكِينُ: رَحِمَكُمُ اللَّهُ، أَطْعَمُونَا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ.. فَقَامَ عَلِيُّ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) فَأَعْطَاهُ ثُلُثَهَا، فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ يَتِيمٌ، فَقَالَ الْيَتِيمُ: رَحِمَكُمُ اللَّهُ، أَطْعَمُونَا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ، فَقَامَ عَلِيُّ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) فَأَعْطَاهُ ثُلُثَهَا الثَّانِي، فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ أَسِيرٌ، فَقَالَ الْأَسِيرُ: يَرْحَمَكُمُ اللَّهُ، أَطْعَمُونَا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ، فَقَامَ عَلِيُّ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) فَأَعْطَاهُ الثُّلُثَ الْبَاقِي، وَمَا ذَاقُوهَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِمْ هَذِهِ الْآيَةَ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَكَانَ سَعْيِكُمْ مَشْكُورًا﴾ فِي أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ)، وَهِيَ جَارِيَةٌ فِي كُلِّ مُؤْمِنٍ فَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ لِلَّهِ ﷻ﴾

هذه هي القصة من دون مبالغة ولا زيادات، وقد رواها جمع من المفسرين.

لقد عالج القرآن الكريم موضوع الظلم والاضطهاد الذي يمارسه الطُّغاة مع المستضعفين من الناس باختلاف جنسهم وأعمارهم، فقد حثت الآية (٧٥) من سورة النساء المباركة: المؤمنين على القتال لرفع الحيف عن الأشخاص المُستضعفين، وقد

وجدنا من المفيد أن نعود إلى تفسيرنا: (البيان والتبيين في تفسير وتنزيل القرآن) ج/٣٣/ص ١٦٦ وما بعدها، لتوضيح مقصد تلك الآية الكريمة:

((وقوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تَقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾:

يُحَرِّضُ الْقُرْآنُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ فِي سَبِيلِ إِعْلَاءِ كَلِمَةِ اللَّهِ، وَفِي سَبِيلِ خِلَاصِ الضَّعْفَاءِ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالصِّغَارِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ الْمَحْبُوسِينَ بِمَكَّةَ.

والمعنى: أي شيء لكم حتى لا تقاتلوا؟!... أي: لا عذر لكم في ترك القتال؟... فالاستفهام في الآية الكريمة لإنكار واستقبح التخلف عن الجهاد.. وقد استدعاه باعثنان قويان:

الأول: الدفاع عن الإسلام.

والثاني: تخليص المستضعفين من المسلمين المستذللين بمكة، الذين يتعرضون لأنواع العذاب والنكال وهم ضعفاء لا يستطيعون مقاومة الطغاة.

وكلا الباعثين جديرٌ بأن يُحَفِّزَ الْمُؤْمِنِينَ حَفْزاً إِلَى الْقِتَالِ. وكلاهما جهاد في سبيل الله، ولكنه أفرد المستضعفين، استثارة للحمية والأنفة والغيرة، لما لها في نفوس العرب من مكان مكين.

﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا
وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾:

أي: لا عذر لكم في ترك القتال، لتخليص المستضعفين الذين
عذبهم المشركون بمكة، ومنعواهم من الهجرة أو حريّة العبادّة.
فاتّجهوا إلى الله ﷻ ضارعين، قائلين: يا إلهنا المُنعم، المُتفضّل
علينا بنعمة الإسلام، هيئْ لنا الخروج من مكة والهجرة منها،
فراراً بديننا من أهلها الطّغاة الظالمين، الذين ظلموا أنفسهم
بالشرك، وظلمونا بتعذيبنا، ومَنعنا من الهجرة ومن حريّة
العبادّة، وهيئْ لنا (بفضلك) وليّاً يتولّى أمورنا ويحمينا منهم، وهيئْ
لنا -من عندك- مَنْ ينصُرنا عليهم وييسّر لنا طريق الهجرة إلى
إخواننا المسلمين.)) (انتهى).

الآيات الكريّمات (٢٧-٣٠) من سورة البقرة المباركة تناولت
موضوع في غاية الأهميّة، وهو قبول الله ﷻ أعمال الأشخاص
المؤمنين وعدم قبولها من الأشخاص غير المؤمنين، وتفصيل
ذلك رجعنا تفسيرنا: (البيان والتبيان في تفسير وتنزيل
القرآن) ج/٤٠ ص/١٧٠، وما بعدها، فذكرنا ما يلي:

وقوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنِي آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا
قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ
إِنَّمَا يُتَقَبَّلُ لِلَّهِ مِنَ الْمُتَّقِينَ* لَنْ بَسَطَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا
بِبَاسِطِ يَدِي إِلَيْكَ لَأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ* إِنِّي أُرِيدُ أَنْ

تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ* فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الخَاسِرِينَ:

والمعنى: واتل يا محمد على اليهود (أو على أممك)، خبر ابني آدم تلاوة مقترنة بالحق والصدق، حين قدم كلا منهما إلى الله قرباناً، ولم يكونا على درجة واحدة من الإخلاص فيما تقربا به، فتقبل الله قربان المخلص، ولم يتقبل قربان غيره، فامتأ قلبه غيظاً وحسداً وحقداً على أخيه التقي الذي قبل قربانه، مع أنه لا ذنب للتقي في رفض الله قربان الشقي، لأن المذنب هو الشقي بعدم إخلاصه لله ﷻ.

﴿قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾:

قال الشقي لأخيه التقي: لأقتلنك!... يريد بذلك أن يتخلص منه، حتى لا يراه بعدما تقبل الله قربانه. فإن غريزة الفساد، لا تطبق الصلاح.

فأجابه أخوه الصالح بقوله: **﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾**،

يريد بذلك أنه لا ذنب له في عدم قبول قربانه، وأن الذنب آت من قبله هو، لأنه لما لم يتق الله، لم يقبل الله قربانه، فإنه تعالى، لا يتقبل إلا من أهل التقوى، فلو اتقاه قبل منه قربانه، فلا وجه لتحميله تبعة رفض قربانه وإقسامه على قتله.

وكما ذكرنا، طبيعة الشقي تسوغ له ألا يرى إلا الأشقياء، كما

أن طبيعة النقي، تحب إليه ألا يوجد إلا الأتقياء، فقال لأخيه:-

﴿لَنْ بَسَطَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطِ يَدِي إِلَيْكَ
لَأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾:

يقول الأخ الصالح الذي تقبل قربانه لأخيه الذي لم يتقبل منه، وتورط في الإقسام على قتله: تالله لئن مددت إلي يدي لأقتلني، ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك، لأنني أخاف عقوبة الله رب العالمين إن أنا قتلتك!!...

يريد بما قاله أن يوقظ ضمير أخيه، ليخاف عقاب الله ﷻ، فيعدل عما أقسم عليه، من قتله بدافع الحقد الذي لا مبرر له.

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾:

أي: إنني أريد باستسلامي لك، وعدم قتلك - ابتداءً أو دفاعاً - أن ترجع بإثم قتلك لي، وإثمك الذي لأجله لم يتقبل قربانك، إذا أصرت على قتلي ولم تخف رب العالمين، فتكون بذلك من أصحاب النار اللزيمين لها، وهذا عقاب الظالمين المعتدين.

يريد بذلك، أن يوقظ ضميره، وأن يعلم المصير الذي ينتظر القاتلين، وأنه لا ينبغي لأخ أن يقاتل أخاه، ولكن له أن يدافع عن نفسه دون قتل أخيه إذا استطاع إلى ذلك سبيلاً.

والإسلام يقرر رد العدوان بمثله، ويمنع قتال المسلم لأخيه المسلم، ما لم يكن مضطراً للدفاع عن نفسه ولم يجد له نجاة إلا بقتل من اعتدى عليه، قال تعالى في سورة/الحجرات/آية/٩:-

﴿...فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ...﴾

وقوله تعالى: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ

الْخَاسِرِينَ﴾:

أي: فسَهَّلتْ لِقَابِيلَ نَفْسُهُ أَنْ يَقْتُلَ أَخَاهُ الصَّالِحَ، الَّذِي لَا ذَنْبَ لَهُ فِي عَدَمِ قَبُولِ قُرْبَانِهِ فَقَتَلَهُ بَعْدَ أَنْ بَدَلَ لَهُ مِنَ النَّصِيحِ وَالْإِشْرَادِ، وَالتَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيْبِ، فَمَا أَوْرَثَهُ ذَلِكَ إِلَّا الْإِصْرَارَ عَلَى الْغِيِّ وَالْإِنْهَمَاكَ فِي الْفَسَادِ، فَأَصْبَحَ - بِجَرِيْمَتِهِ النَّكْرَاءِ الَّتِي لَا مَبْرَرَ لَهَا - مِنَ الْخَاسِرِينَ، الَّذِينَ خَسَرُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَفْسَدُوا فِطْرَتَهَا، وَخَسَرُوا أَقْرَبَ النَّاسِ إِلَيْهِمْ وَأَعْوَنَهُمْ عَلَى بَأْسَاءِ الْحَيَاةِ، وَخَسَرُوا حُسْنَ السَّمْعَةِ فِي الدُّنْيَا، وَخَسَرُوا النَّجَاةَ مِنَ الْعِقَابِ فِي الْآخِرَةِ، وَبِذَلِكَ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ: وَذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمَبِينُ.)) (انتهى).

لقد أولى القرآن الكريم الأهمية لموضوع قول الزور والوشاية والنميمة والبهتان ونهى بشكلٍ قاطعٍ كلَّ المؤمنين من الخوض بأبناء غير مؤكدة، والآية السادسة من سورة الحجرات المباركة تطرقت الموضوع، وللوقوف على مغزى تلك الآية المباركة إلى هذا رجعنا إلى تفسيرنا: (البيان والتبيان في تفسير وتنزيل القرآن) ج/٣٥ ص/٢٧٣، وما بعدها، لتوضيح مقاصد تلك الآية المباركة، فذكرنا ما يلي:

((قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ

فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾:

حرب الإشاعات

هذه أهمُّ خصلة وأخطر خصلة كان المنافقون يلجأون إليها في حربهم الداخلية ضد المسلمين، وهي أداة خطيرة في كلِّ زمان وهي الأخبار الكاذبة والإشاعات المضلَّة والأبواء المُغرِضة والمنشورات المزوَّرة، فهي أخبار يخلقها الفاسقون، ويصطنعها المُغرِضون وينشئها المتصيِّدون بالماء العكر.

وقد يَنجُرُّ المؤمنون بغير قصد إلى تصديق أخبار ليست صادقة، ويكون ذلك قبل التثبُّت من ناقل الخبر، وقبل تبين مضمون الخبر، لذا لزم تنبيههم إلى ذلك، فالخبر الكاذب تكون آثاره بعيدة عن الصواب مجانية للحقِّ، ولذا ينبغي التدقيق في التعرف على راوي الخبر، هل هو ممَّن عُرِفَ بالصلاح والصدق فيُقْبَلُ خبره، أم هو ممَّن عُرِفَ بالفسق والكذب فيُتحرَّى عن خبره ويُتنبَّت منه. ولهذا أنزل الله ﷻ هذه الآية الكريمة لتوعية المسلمين بالتدقيق في تلقِّي الأخبار، لما يترتب على قبولها من الفساق من سيِّئ الآثار.

سبب نزول الآية:

روى سعيد عن قتادة، أنَّ النبيَّ ﷺ بعث الوليد بن عُقبَةَ مُصدِّقاً إلى بني المُصطلق بعد إسلامهم (أي: جابياً للصدقة منهم وهي الزكاة) فلما أبصروه أقبلوا نحوه، فهابهم، فرجع إلى النبيِّ ﷺ فأخبره بأنهم قد ارتدوا عن الإسلام، فبعث نبيُّ الله ﷺ خالد بن

الوليد وأمره أن يتثبت ولا يعجل، وانطلق خالد حتى أتاهم ليلاً، فبعث عيونَه (أي: جواسيسه)، فلَمَّا جَاءُوا، أَخْبَرُوا خَالِدًا أَنَّهُمْ مُتَمَسِّكُونَ بِالْإِسْلَامِ، وَسَمِعُوا أذَانَهُمْ وَصَلَاتِهِمْ، فَلَمَّا أَصْبَحُوا أَتَاهُمْ خَالِدٌ وَرَأَى صِحَّةَ مَا ذَكَرُوهُ، فَعَادَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ، فَنَزَلَتِ الْآيَةُ، فَكَانَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:-

﴿التَّائِي مِنَ اللَّهِ، وَالْعَجَلَةُ مِنَ الشَّيْطَانِ﴾

وجاء في رواية أخرى أن وفدَهُمْ قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، سَمِعْنَا رَسُولَكَ، فَخَرَجْنَا إِلَيْهِ لِنُكْرِمَهُ وَنُؤَدِّيَ إِلَيْهِ مَا عِنْدَنَا مِنَ الصَّدَقَةِ، فَاسْتَمَرَّ رَاجِعًا وَبَلَّغَنَا أَنَّهُ يَزْعُمُ لِرَسُولِ اللَّهِ، أَنَّا خَرَجْنَا لِنَقَاتِلَهُ.. وَاللَّهِ، مَا خَرَجْنَا لِذَلِكَ.. فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ.

والمعنى للإجمالي للآية: يا أيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، إِنْ جَاءَكُمْ مَنْ يُحْتَمِلُ فِسْقَهُ بِخَبْرٍ خَطِيرٍ، فَتَثَبَّتُوا مِنْ صِدْقِهِ لِكَيْلَا تَصِيبُوا قَوْمًا وَتَعْتَدُوا عَلَيْهِمْ وَأَنْتُمْ جَاهِلُونَ لِلْحَقِيقَةِ، فَتُصْبِحُوا نَادِمِينَ عَلَى مَا فَعَلْتُمْ مِنَ التَّسْرُّعِ فِي الْإِنْتِقَامِ مِنْهُمْ، قَبْلَ التَّثَبُّتِ مِنْ حَالِ خَبْرِهِمْ وَذَلِكَ حِينَ تَظْهَرُ الْحَقِيقَةُ مُخَالَفَةً لِلْخَبْرِ بَعْدَ التَّوَرُّطِ فِي آثَارِهِ.)) (انتهى).

المنهج القرآني المبارك يُؤكِّدُ عَلَى وَحْدَةِ الْأُسْرَةِ وَالْمَجْتَمَعِ وَالشَّعْبِ وَالْأُمَّةِ، لِأَنَّ سِرَّ قُوَّةِ الْمَجْتَمَعِ يَكْمُنُ فِي وَحْدَتِهِ، وَقَدْ عَالَجَتِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ (١٠٣) مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ هَذَا الْمَوْضُوعَ بِدَقَّةٍ، وَلِتَفْصِيلِ مَقْصَدِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ أَعْلَاهُ رَجَعْنَا إِلَى تَفْسِيرِنَا:

(البيان والتبيين في تفسير وتنزيل القرآن) / ج ٣١ / ص (١٢٣-١٢٤)

حيث ذكرنا ما يلي:

((وقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءَ فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا...﴾

بعد أن: نهى الله المؤمنين عن طاعة أهل الكتاب، ونبههم إلى عاقبة ذلك في الدنيا والآخرة، وذكرهم بما يجب لله عليهم من تقوى الله حق تقاته، وتمسكهم بالإسلام حتى يأتهم بالموت وهم مسلمون - بعد هذا كله - عاد فأمرهم بالاعتصام بحبله، أي التمسك بالإسلام: مجتمعين غير متفرقين، وأن يتذكروا نعمة الله التي أنعم بها عليهم حين كانوا أعداء، يقتل بعضهم بعضاً استجابةً لعصبية الجاهلية، فأنقذهم من هذا ونجّاهم منه، بأن هداهم للإسلام، وألّف به بين قلوبهم، فأصبحوا يتواصلون بالألفة واجتماع الكلمة.

وبهذا، صاروا إخواناً متحابين، وأعواناً متناصرين، فالإسلام يُوجب الأخوة بين المؤمنين: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾، كما يوجب الولاء والنصرة: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾.

﴿وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾:

أي: وكنتم - بسبب كفركم وما جرّكم إليه من عداوتكم - مشرفين على الوقوع في نار جهنم، إذ لو أدرككم الموت - على

هذه الحال - لوقعتُم فيها، ولكنَّ الله أنقذكم منها، بأنَّ هداكم للإيمان، وزينته في قلوبكم، فكان رباطاً موحداً لكم.

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾:

أي: بمثل هذا البيان الواضح، يُبين الله لكم سائر آياته، لكي تثبتوا على الهدى، وتزدادوا فيه اعتصاماً وقوة.)) (انتهى).

لم يترك القرآن الكريم البشرية تتخبّط بين الحق والباطل، وإنما وضع (سُبْحَانَهُ) الضوابط الصارمة التي تُحدّد مسيرة الإنسان الإيمانية، ولتأكيد أهميّة الكلمة الطيبة الهادفة استعرضت الآيات المباركتان (٢٤-٢٥) من سورة ابراهيم عليه السلام هذا الموضوع الدقيق، وللوقوف على المقصد الإلهي لتلك الآيات الكريمات، اقتبسناها من تفسيرنا: (البيان والتبيين في تفسير وتنزيل القرآن) ج/٢٣/ص (٢٩٣-٢٩٦)، حيث ذكرنا ما يلي:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾:

لَمَّا بَيَّنَّ اللهُ عليه السلام أحوال السعداء وأحوال الأشقياء فيما تقدّم، ضرب لكل من الفريقين مثلاً يتميِّز به عن صاحبه، فقال (عزٌّ من قائل) يخاطب كلَّ من يصلح للخطاب من أصحاب العقول الراجحة:-

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ﴾

أي: ألم تعلم أيُّها العاقل الفطن كيف بيّن الله للناس مثلاً

يعرفون به منزلة كلمة التوحيد في الإسلام، حيث شَبَّهَهَا بشجرة طيبة أصلها ضارب بعروقه في الأرض، وفرعها -أي أعلاها- مُتَّجِهٌ إلى السماء، تُعطي ثمرها في كلِّ وقتٍ وقتَه اللهُ لِإِثْمَارِهَا بِإِذْنِ خَالِقِهَا وَمُرَبِّيِّهَا.

الكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ

فالمراد بالكلمة الطَّيِّبَةُ هي شهادة (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ) التي هي الأساس الأول للإسلام، وقيل أنها القرآن الكريم، فإنه أصل يتفرَّع عليه كلُّ خيرٍ في الدنيا والآخرة، وقد شَبَّهَهَا اللهُ (تَبَارَكَ وَتَعَالَى) بالشجرة الطَّيِّبَةُ، والمراد بها عند جمهور المُفسِّرين: النخلة، وقيل: هي كلُّ شجرة مُثمرة طَيِّبَةُ الثَّمَارِ والمنظر والرائحة، وقيل غير ذلك، وأرجح هذه الأقوال أولها وهو كونها النخلة.

ووجه تشبيه الكلمة الطَّيِّبَةُ بالنخلة، أنَّ أصل تلك الكلمة وهو الإيمان ثابت في قلب المؤمن كثبوت جذور النخلة في الأرض، وأنَّ ما يتفرَّع منها ويبنى عليها من الأعمال الصالحة والأفعال الزكية يرفع إلى السماء، ويصعد إلى الله تعالى، كما قال (جَلَّ شَأْنُهُ) في سورة فاطر: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾.

وأنَّ ما يترتب على ذلك من ثواب الله تعالى ورضاه دائم دوام ثمرها، والانتفاع بها في كلِّ وقتٍ، فإنَّ ثمر النخيل يُؤكَلُ أبداً ليلاً ونهاراً صيفاً وشتاءً، فيؤكَلُ منها الجُمَارُ والبَلَحُ، والبُسْرُ والرُّطْبُ والتَّمْرُ، وكلُّ نتاجها خير وبركة من بعد أن تُغرَسَ إلى أن تجفَّ

وتيبس، بل بعد أن تُقَطَّعَ قِطْعًا تُسْتَعْمَلُ فِي مَصَالِحِ النَّاسِ وَمُرَافِقِهِمْ وَلَنْ تَرَى شَيْئًا مِنْهَا مُهْمَلًا أَبَدًا، وَكَمْ مِنَ النَّاسِ يَقِيمُونَ فِي بَيْوتِ تَعْتَمِدُ عَلَى جَذْوَعِ النَّخْلِ وَجَرِيدِهِ، وَيَعِيشُونَ عَلَى التَّمْرِ كَمَا تَعِيشُ إِبْلَهُمْ عَلَى النَّوَى.. وَكَذَلِكَ الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ وَالْمُسْلِمُ الْحَقُّ، كُلُّهُ خَيْرٌ وَبِرَكَّةٍ أَيْنَمَا حَلَّ وَارْتَحَلَ: لِنَفْسِهِ وَعَشِيرَتِهِ وَأُمَّتِهِ، فِي حَيَاتِهِ وَبَعْدَ مَمَاتِهِ، وَمِنْ هُنَا فَسُرَّتِ الْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ بِالْمُؤْمِنِ كَمَا قَالَ بَعْضُهُمْ، فَمَا أَرُوْعُ هَذَا التَّشْبِيهِ الْمُقْتَبَسَ مِنْ مِشْكَاتِ النُّورِ الْإِلَهِيِّ.

وَعِنْدَ أَهْلِ الْبَيْتِ الَّذِينَ هُمْ أَدْرَى بِمَا فِيهِ، كَمَا فِي الْكَافِي لِلْكُلَيْنِيِّ أَنَّهَا أَهْلُ الْبَيْتِ، قَالَ: عَنْ عَمْرٍو بْنِ حُرَيْثٍ، قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) عَنْ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾، قَالَ: فَقَالَ:-

﴿رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) أَصْلُهَا وَأَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) فَرْعُهَا، وَالْأُئِمَّةُ مِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا أَغْصَانُهَا، وَعِلْمُ الْأُئِمَّةِ ثَمَرُهَا، وَشَيْعَتُهُمْ وَرَقَّتُهَا، هَلْ تَرَى فِيهَا فَضْلًا؟...﴾
قُلْتُ: لَا وَاللَّهِ.. قَالَ:-

﴿وَاللَّهُ إِنْ الْمُؤْمِنَ لِيُولَدُ فَتَوَرَّقَ وَرَقَّةٌ فِيهَا وَإِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيَمُوتُ فَتَسْقُطُ وَرَقَّةٌ مِنْهَا﴾^(١)

وَفِي خِتَامِ الْكَرِيمَةِ يَقُولُ اللَّهُ ﷻ:-

﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾: تَنْبِيهَاً عَلَى

(١) الكافي للكليني/٢/٤٠٣.

شأن الأمثال وعظيم فائدتها، في تجلية الحقائق وتنويرها عوناً على التبصير والتذكير، ودوام النظر والتدبر في كتاب الله الحكيم.)) (انتهى).

اعتمد القرآن الكريم منهج العفو والتسامح كوسيلة من الوسائل الناجعة لتفكيك الأزمات التي قد تحصل بين أبناء المجتمع، فتطرقت الآيتان الكريمتان (٢٦٣ - ٢٦٤) من سورة البقرة المباركة إلى هذا الموضوع، ولغرض الوقوف على تفصيل هذا الموضوع بصورة أعمق وأدق، لا بد لنا من الرجوع إلى تفسير تلك الآيات كما ورد في تفسيرنا: (البيان والبيان في تفسير وتنزيل القرآن) ج/٢٩/ص ٢٧٤، وما بعدها، فقد ذكرنا ما يلي:

((وقوله تعالى: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَدَىٰ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾:

القول المعروف: أن يردَّ المسؤول على من يسأله الصدقة بالقول الجميل، الذي تقبله النفوس ولا تنكره ولا تتأذى منه، كأن يعتذر إليه بعدم استطاعته أو يعده بالمعاونة في المستقبل، أو يدعو له بالتيسير والفرج، والمغفرة له: هي العفو عنه إذا وجد منه إحاحاً في الطلب، أو ثقلاً في السؤال.

والآية الكريمة تُفيد: أنَّ المسؤول إذا سلك مع السائل هذا المسلك، فإنه يكون أحسن وأفضل من أن يُعطيه صدقة، ثم يتبعها تطاوله عليه، أو إيذاءه له بقول أو عمل.

﴿وَاللَّهُ غَنِيٌّ﴾: فلا يُحوج الفقراء إلى تحمّل مؤونة المَنِّ

والأذى، بل يرزقهم من جهة أخرى.

﴿حَلِيمٌ﴾: لا يعجل بالعقوبة لأصحاب المَنِّ والأذى، لعلهم

يتوبون.

فعلى الغنى المسلم أن يتعظ بهذا التنكير، فيعطي بلا مَنٍّ ولا إيذاء، أو يردّ السائل ردًّا جميلاً، مع حُسن الاحتمال لما يتقل من السائل.

وقال ابن عاشور في تفسيره حول هذه الآية: ((وجُملةُ ﴿قَوْلٌ

مَعْرُوفٌ﴾ إلى آخرها مُسْتَأَنَفَةٌ اسْتِنْفَافًا بَيَانِيًّا، وَتَنْكِيرٌ ﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾

لِلتَّقْلِيلِ، أَيُّ أَقْلٌ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتَّبِعُهَا أذى،

والمَعْرُوفُ هُوَ الَّذِي يَعْرِفُهُ النَّاسُ، أَي: لَا يُنْكِرُونَهُ، فالمرادُ بِهِ

القَوْلُ الحَسَنُ وَهُوَ ضِدُّ الأذى.

والمَغْفِرَةُ هُنَا يُرَادُ بِهَا التَّجَاوُزُ عَنِ الإِسَاءَةِ، أَي: تَجَاوُزُ

الْمُتَصَدِّقِ عَنِ المُلْحِ أَوْ الجَافِي فِي سُؤَالِهِ الإِحَاةَ أَوْ جَفَاءَهُ، مِثْلَ

الَّذِي يَسْأَلُ فَيَقُولُ: أَعْطِنِي حَقَّ اللّهِ الَّذِي عِنْدَكَ أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ، وَيُرَادُ

بِهَا أَيْضًا تَجَاوُزُ اللّهِ تَعَالَى عَنِ الذُّنُوبِ بِسَبَبِ تِلْكَ الصَّدَقَةِ إِذَا كَانَ

مَعَهَا قَوْلٌ مَعْرُوفٌ، وَفِي هَذَا تَعْرِيزٌ بِأَنَّ الأذى يُوشِكُ أَنْ يُبْطِلَ

ثَوَابَ الصَّدَقَةِ))^(١).

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ

(١) التحرير والتنوير/ج ٣/ص ٤٧.

**بِالْمَنْ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تَرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا
يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ:**

يا أيها الذين آمنوا، لا تضيعوا على أنفسكم ثواب صدقاتكم
بالفخر على الفقراء، الذين تدفعونها إليهم، أو بالتطاول عليهم،
وإيذائهم بالقول أو الفعل.

﴿كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾:
شَبَّهَتِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةَ الْمُتَصَدِّقَ الَّذِي يُتَّبِعُ صَدَقَاتِهِ بِالْمَنْ
وَالْأَذَى، بِالَّذِي يَتَصَدَّقُ بِالْأَمْوَالِ لِرِئَائِي بِهَا النَّاسِ وَهُوَ - مَعَ هَذَا -
لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَهُوَ لَا يَرْجُو ثَوَابًا، وَلَا يَخْشَى عِقَابًا
مِنَ اللَّهِ، بَلْ يَلْتَمَسُ بِصَدَقَتِهِ رِضْوَانَ النَّاسِ لَا رِضْوَانَ اللَّهِ.

وقد روى المجلسي خبراً عن رسول الله يخصُّ هذا النوع من
السلوك البعيد عن جوهر الدين، فقال: ((وَقَدْ رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ص
أَنَّهُ قَالَ: -

﴿إِنْ أَخَوْفَا مَا أَخَافَ عَلَيْكُمُ الشَّرْكَ الْأَصْغَرَ﴾

قِيلَ: وَمَا الشَّرْكَ الْأَصْغَرُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: -

**﴿الرِّيَاءُ، يَقُولُ اللَّهُ ﷻ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا جَارَى الْعِبَادَ
بِأَعْمَالِهِمْ: اذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاءُونَ فِي
الدُّنْيَا، هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ ثَوَابَ أَعْمَالِكُمْ﴾** (١)

(١) بحار الانوار/ج ٦٩/ص ٢٦٤.

والآيات التي ذمّت الرياء في القرآن الكريم، هي كما يلي:-

﴿.... كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ....﴾^(١)

﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ....﴾^(٢)

﴿.... يُرَاءُونَ النَّاسَ....﴾^(٣)

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ

النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ

مُحِيطٌ﴾^(٤)

﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ* وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾^(٥)

ثم قال تعالى موضحاً حال المرابي بمثل تسوقه الآية في قوله

تعالى:-

﴿.... فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ

فَتَرَكَهُ صَلْدًا....﴾^(٦)

شبه الله ﷻ المرابي ونفقته التي لا ثواب لها، بحجر أملس

عليه تراب، هطل عليه وابل، أي: مطر شديد ضخم القطر، فأزال

عنه التراب، وتركه ناعماً أملس خالياً من التراب.

والغرض من هذا التشبيه: أن المرابي بنفقته التي لا يريد بها

(١) سورة البقرة/آية/٢٦٤.

(٢) سورة النساء/آية/٣٨.

(٣) سورة النساء/آية/١٤٢.

(٤) سورة الأنفال/آية/٤٧.

(٥) سورة الماعون/آية/(٦-٧).

(٦) سورة البقرة/آية/٢٦٤.

وجه الله ولا اليوم الآخر لا ثواب له كما سيأتي التصريح به.

﴿لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا﴾:

أي: هؤلاء الذين ينفقون أموالهم رياءً الناس ولا يؤمنون بالله واليوم الآخر، لا يقدرّون يوم القيامة على نيل ثواب شيءٍ مما بذلوه في الدنيا، لأنهم لم يعملوا لمعادهم، ولا لطلب ما عند الله في الآخرة.

وإذا كان هذا الضياع مآل أولئك المرأئين، فكذلك مآل من يشبههم، وهم الذين يبطلون ثواب ما أنفقوا بالمن والأذى.

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾:

والله ﷻ لا يوفق هؤلاء الكفار لإصابة الحق في نفقاتهم، لأنهم آثروا الرياء على ابتغاء مرضاة الله، فتركهم في ضلالهم يعمهون. وقد نهى الله المؤمنين (بهذا التشبيه) عن أن ينزلقوا فيما انزلق فيه هؤلاء الكفار، فإن في الآية تعريضاً بأن كلاً من الرياء، والمن والأذى، من خصائص الكفار، ولا بد للمؤمنين أن يجتنبوها.

الله ﷻ قد خير الإنسان بين الدنيا والآخرة، فقد جاء ذلك في الآيتين المباركتين (١٥-١٦) من سورة هود الكريمة، ومن أجل إلقاء الضوء على هذا الموضوع بشكل مفصل اقتبسنا هذه الصفحات من تفسيرنا: (البيان والتبيان في تفسير وتنزيل القرآن) ج/١٤ ص(٢٩٦-٢٩٧)، فذكرنا ما يلي:-

(قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّا لَهَا نُفُوًا

إِلَيْهِمْ أَعْمَالُهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾:

بعد ما ثبت أنَّ القرآن من عند الله ﷻ بعجزهم عن الإتيان بمثله، جاءت هذه الآية والتي بعدها لتبيِّن أنَّ مَنْ ينصرف عن العمل به إلى الاهتمام بالدنيا وحدها وتَرْكِ العمل للآخرة، عاقبته الخُسرانُ المبيِّن.

والمعنى: مَنْ كان كلُّ همِّه ومقصده من وجوده الدنيوي التمتع بملذات الدنيا وما يُتزيَّن به فيها، فيعمل للتمتع بملذاته فيها، دون أن يهتم بقاء الله ﷻ والعمل للآخرة بالبرِّ والإحسان وتزكية النفس بالإيمان والتقوى، ﴿نُوفَ إِلَيْهِمْ أَعْمَالُهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾:

أي: نُعطيهم جزاء أعمالهم وافيًّا في الدنيا، من الصحة والرياسة وسعة الرزق وكثرة الأولاد وغير ذلك، وهم فيها لا يُنقصون شيئاً من أجورهم الدنيوية ﴿وَلَا يظَلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾:

أي: أولئك الذين لا يريدون إلا زينة الحياة الدنيا وبهجتها وإشباع غرائزهم فيها ولم تمتدَّ أبصارهم وأعمالهم وآمالهم إلى ما وراء هذه الحياة - أولئك - ليس لهم في الآخرة مثوى إلا النار، لأنَّهم استوفوا في الدنيا ما تقتضيه صور أعمالهم، وبقيت لهم

أوزار عقائدهم ونيّاتهم السيّئة، وبطل ثواب ما صنعوه في الدنيا،
لأنّه لم يعمل لوجه الله ﷻ، فلا نفع ولا خير لهم فيه قال تعالى:-

﴿مَنْ كَانَ يَرِيدُ الْعَاجِلَةَ جَعَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ
نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا* وَمَنْ
أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ
سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾^(١)

يُعتبر النفاق الاجتماعي حالة مرضية في السلوك الإنساني
وقد شخّص القرآن الكريم هذه الحالة وحذّر منها تخديراً شديداً،
ومن أمثلة هذا التحذير ما جاء في الآيات الكريمة (٢٠٤-٢٠٦)
من سورة البقرة المباركة، وللوقوف بدقّة على مقاصد تلك الآيات
رجعنا إلى تفسيرنا: (البيان والتبيان في تفسير وتنزيل
القرآن) ج/٢٨/ص ٣٤٢، وما بعدها، فذكرنا ما يلي:-

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ* وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي
الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ* وَإِذَا
قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾:

قسّم الله ﷻ - فيما سبق - إلى فريقين فريق يطلب الدنيا
- وحدها - ولا يعمل لآخرته حساباً، وفريق يرجو فضل الله في
الدنيا وثوابه في الآخرة، وقد وضّح لنا (سُبْحَانَهُ) وصّف كلّ فريق

(١) سورة الإسراء/آية/(١٨-١٩).

منهما، في هذه الآية وما تلاها.. ففي هذه الآية بين الله أن الفريق الأول: تعمق في النفاق، وأتقن صناعة التمويه والغش، وبراعة التعبير، واتخذ من هذا وسيلة له في الحياة الدنيا، فهو يعجب الناس بحديثه، ويُبهرهم بقوله.

وقوله: ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾: متعلق بالفعل: ﴿يُعْجِبُكَ﴾، أي: يعجبك في الحياة الدنيا قوله بفصاحته وحلاوته، فتخدع بذلك وتعتقد فيه الصدق.. أمّا في الآخرة فلا يستطيع التمويه والتضليل، إذ يظهر كذبه ويفضحه باطل دعواه.

ويجوز تعلقه بلفظ: ﴿قَوْلُهُ﴾، أي: يعجبك ما يقوله في أمور الدنيا وأسباب المعاش، سواء أكانت عائدة إليه أم لا.

فالمراد من ﴿الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾: ما به الحياة والعيش. أو يعجبك قوله في الدنيا وأنها فانية، وأنه ينبغي اتخاذها سفينة للآخرة: بادّخار الإيمان والعمل الصالح فيها، وهذا المنافق، لا يكتفي بأن يخدع الناس ويستولى على إعجاب المسلمين ببراعة حديثه، بل يفعل هذا.

﴿وَيُشْهِدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ﴾: بأن يدّعي أن قلبه موافق لما نطق به لسانه، ويشهد الله على ذلك، مع أن ما في قلبه - الذي يُشهد الله عليه - ليس إلا الحقد والعداوة للإسلام والمسلمين.

﴿وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾:

أي: وهو شديد في خصومته للرسول وأصحابه، كاذب فيما

يتظاهر به من حُبِّ وولاء، وهو (بذلك النفاق) أبغض الناس إلى الله.

فيدخل في المراد من هذه الآية: أولئك الذين يتظاهرون بالدعوة إلى الإصلاح، ويستعملون أساليبهم الزائفة، وعباراتهم البراقة في خداع الناس لكسب ثقتهم، والاطمئنان إليهم، حتى يستطيعوا (عن طريق هذه الثقة) محاربة الدين، وهم يلبسون ثوب الإصلاح.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ* وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾:

أي: وإذا أدبر ورجع بعد ما بث نفاقه، ونفت سُمِّه، وظنَّ أنه نجح واكتسب ثقة الناس، سعى في الأرض لينشرَ فيها الفساد جهد طاقته، ويُهْلِك الزرع والذريةَ بالإتلاف والقتل، إذ كان يُظهر الإيمان والحُبَّ للرسول بكلام معسول، ثم يتولَّى، فيحرق الزرع، ويؤلف الأموال.

ويرى بعض المفسرين أنَّ المقصود بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى﴾: إذا وليَ الحكم، وأخذ بيده مقاليد السلطان.

ويُصبح معنى الآية الكريمة على هذا: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُفْجِكُ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ببيانه الساحر، وادِّعائه الإصلاح بين المسلمين وحرصه على مصلحة الأمة (توصلاً إلى الحكم، فإذا وليَ

هذا الحكم، وتمكّن سلطانه بسببه) فعل بالناس ما يفعله ولؤاة السوء، وظهر من أمره ما كان يُخفيه، فسعى في الأرض (بحيلته وتدبيره) ليفسد فيها بما يشاء من ألوان الفساد فيهلك الحرث، ويسفك الدماء، ويهدّد الحرّيات، وينشر الشرور والمنازعات بين الأمّة، ويضرب بعضها ببعض باصطناع الأعوان، وتقريب الأنصار، ليبسط بهم سلطانه على الناس، ويحتفظ بزعامته عليهم، على حدّ قوله تعالى في سورة محمد/آية/٢٢:-

﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ
وَتَقَطُّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾

﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾: أي لا يرضى الله ﷻ بالفساد ولا يُقرّه

بل يعاقب عليه في الدنيا والآخرة، فاحذروه وخافوه.)) (انتهى).

لقد نهى القرآن الكريم بصورة قاطعة على ممارسة السخرية من الآخرين لأنّ في ذلك انتهاك لكرامتهم وتقليل من شأنهم، كما نهى القرآن الكريم من ممارسة أيّ سلوك يُؤدّي إلى أذى الآخرين وامتھانهم وهدر كرامتهم، وقد جاءت الآية (١١) من سورة الحجرات المباركة لتقطع الطريق على هذا السلوك السلبي، ومن أجل الإحاطة بهذا الموضوع الحساس، لابدّ لنا من الرجوع إلى تفسيرنا: (البيان والتبيان في تفسير وتنزيل القرآن)/ج/٣٨/ص/٥٢، وما بعدها، لبحث هذا الموضوع المهم، فذكرنا ما يلي:-

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرُوا قَوْمًا مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ

أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءً مِّنْ نِّسَاءِ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْمُسْتَوْقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١٠١﴾:

من أهداف الإسلام العظمى أن يجعل المؤمنين مجتمعاً فاضلاً يقوم على مكارم الأخلاق، وقد اشتملت هذه الآية على آداب رشيدة من دستور الإسلام الخلقي، وبيان ذلك فيما يلي: نهى الله المؤمنين في صدر هذه الآية عن سخرية بعضهم ببعض، والاستهزاء بهم، والقوم يُطلق على الرجال بخاصة، وقد يدخل النساء في القوم مجازاً، ولكن الله شاء أن يعني بهذه النسخة، فهي النساء عنها نهياً مستقلاً عن نهى الذكور لكثرة وقوعها بينهم.

والمراد أن لا يُقدِّم أحد من الرجال أو النساء على الاستهزاء ممن يقتحمه يُعينه إذا رآه رثَّ الهيئة أو ذا عاهة في بدنه أو غير ذلك، فاعله أخلص ضميراً وأنقى قلباً ممن هو على ضدِّ صِفته، فيظلم نفسه بتحقير مَنْ وقَّره.

وقد كان المسلمون في عصور الإسلام الأولى يبالغون في البُعد عن السخرية، وهو لا يكلفنا شيئاً، فينبغي أن نكون مثلهم، فالعبرة في الإسلام بالقلوب لا بهيئات الناس ومظاهرهم.

ويقول الله ﷻ: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا﴾: واللمز: العيب، وقد يكون باللسان أو الإشارة أو العين أو غير ذلك، وقال: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾: ولم يقل: (ولا يلمز بعضكم بعضاً)، ليشير بذلك إلى أن

المؤمنين كنفس واحدة، فمن عاب غيره منهم فكأنما عاب نفسه، قال (صلى الله عليه وآله وسلم): -

﴿المؤمنون كجسد واحد، إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى﴾

أي: لا تفعلوا ما تلمزون به، فإن من فعل ما استحق به اللمز، فقد لمز نفسه.

ثم يقول الله ﷻ: ﴿وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَنْقَابِ﴾ والنَّبْرُ (بالتحريك) اللقب، ويكثر إطلاقه على لقب السوء، وبالتسكين (النَّبْرُ): المصدر، تقول: نَبَرَهُ يَنْبِرُ نَبْرًا: إذا لقبه بما يسوءه، وقيل: هو قول الرجل للرجل: يا فاسقُ يا منافقُ.

وجاء في الآية ﴿بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾، أي: بِئْسَ أَنْ يُسَمَّى الرَّجُلُ كَافِرًا أَوْ فَاسِقًا بَعْدَ إِسْلَامِهِ وَتَوْبَتِهِ وَقِيلَ فِي مَعْنَى الْآيَةِ: إِنَّ مَنْ لَقِبَ أَخَاهُ أَوْ سَخَرَ مِنْهُ فَهُوَ فَاسِقٌ.

واستثنى من ذلك ما غلب عليه الاستعمال ولم يكن لصاحبه فيه كسب ولا يتأذى منه، لأنه لمجرد التمييز لا الإيذاء، كالأعرج والأحذب والطويل والقصير.

والمعنى الإجمالي للآية:

يا أيها الذين شرفهم الله بالإيمان، لا يسخر أحدٌ من أحدٍ، فلا يستهزئ الرجال بالرجال، ولا النساء بالنساء، عسى أن يكون المسخور به خيراً عند الله من الساخر، لنظافة قلبه وصفاء نفسه،

ولا يَعبُ بعضُكم بعضاً بالقول أو الإشارة أو نحوهما، فإنَّ المؤمنين
 كنفس واحدة، فإذا لَمَزْتَ أخاك وعَيْتَه فكأنَّما لَمَزْتَ نفسك وعَيْتَها،
 بئس الوَصْفُ: الفسوق بعد الإيمان، فمن حقَّ الإيمان أن يعصم
 الناس عن أن يعيب بعضهم بعضاً، فإذا فعل المؤمن ذلك فقد فسق
 بعد الإيمان، وذلك أمر لا يليق بالمؤمنين، ومَن لم يُتَبَّ من
 الاستهزاء بغيره وتنقيصه بالعيب فيه، فأولئك هم الظالمون لأنفسهم
 وإخوانهم المؤمنين.

خلاصة الفصل الثاني

- ١- الإنسان كائن متفتح على عالمه ويتأثر به، والطبيعة البشرية مجبولة على التفاعل مع الواقع الحياتي عن طريق المشاعر الداخلية أو المؤثرات الخارجية.. فالإنسان كائن يخوض التجارب مع الواقع الخارجي فيتأثر بها سواء كان هذا التأثير إيجابياً أو سلبياً.. والله ﷻ قد أودع في ذات الإنسان عنصر الفطرة وهي القوة الدافعة التي تستثير في ذات الإنسان مشاعر الخير فتجعله يتجه بإيجابية في تفاعله مع الواقع، ولكن إذا أهمل الإنسان عنصر الاستجابة لفطرته السليمة، فبلا شك يصبح كائناً غير مستقر، ومن هنا يبدأ الخطر على وجود الإنسان، لأنه فقد عنصر التوازن الذاتي الموجود في ضميره، فيصبح كائناً يعيش تحت تأثيرات الانفعالات النفسية، وبذلك تكون ردود أفعاله في الكثير من الأحيان غير منضبطة وعلى هذا الأساس أراد الله ﷻ أن يحفظ وجود الإنسان بعيداً عن الدناءة والشرور فحصن الإنسان بإرسال الرسالات السماوية والرسل لتصبح مسارات تشير إلى طرق الخير والصلاح لتكون دليلاً يرشد الإنسان لسبيل الحق والعمل الصالح.
- ٢- يُعتبر سلوك الإنسان الواجهة العملية لخلفية الإنسان

الإيمانية والتربوية كما أنه يعكس حالة الشخص النفسية ومدى استقرارها، إضافةً لذلك، فإنَّ سلوك الإنسان يُعبِّر عن الحالة التربوية للإنسان، لذا اهتمَّ الإسلام المجيد في هذا الجانب من أجل أن تسير عجلة الحياة الاجتماعية وفق نظام حياتي مستقرٍّ ومنضبط ومنتج في الحاضر والمستقبل.

٣- لقد وردَ في القرآن الكريم وأحاديث المعصومين (عليهم السَّلام) الكثير من الأمثلة لغرض التشبيه وتقديم صورة عملية عن حالة يجهلها أو يتجاهل عنها المجتمع من أجل التأكيد إيجاباً أو سلباً على حالة سبق للإنسان تجربتها ومعرفة نتائجها عن طريق المقارنة الذهنية بين واقع الحالة الآنية وواقع المثل العملي.

٤- من المعلوم أنَّ هناك تعاوناً في المستويات الفكرية والثقافية والتربوية والسلوكية لأبناء كلِّ مجتمع من المجتمعات، ومن بين شرائح المجتمع المختلفة تظهر عناصر تمتاز بالانفعالية والأناية والعمل لصالح مصالحها الذاتية ولكنها تأخذ من المشاركات الاجتماعية ستاراً لتحقيق مصالحها الخاصة وعند تحقيق مصالحها الذاتية فإنَّها سرعان ما تعلن انسحابها من تلك المشاركات.

٥- في أغلب الأحيان، يتحوَّل الأشخاص النفعيون إلى عناصر تقف بالضد من أيِّ مشروع يخدم المصالح العامة للمجتمع، لا بل أكثر من ذلك، تتحوَّل هذه العناصر إلى نشاط معارض لأيِّ مشروع

يسعى لخدمة المجتمع، فتحاول إفشاله بأي صورة من الصور باختلاق مختلف المشاكل والمُعرقلات لذلك المشروع الهادف.

٦- إن الإنسان السلبي يكون صاحب موقف مضاد لأي عمل بناءً يحاول أن يقوم به الآخرون بسبب الجهل، وغياب الإحساس بالمسؤولية والأثانية وغير ذلك من العوامل التي تقف بالضد من أي عمل إصلاحي في المجتمع.

٧- الشخص الأثاني يكون ذا نفسية قلقة لا تستشعر حب العمل مع الآخرين، كما أن هذه الشخصية تسيطر عليها مشاعر الخوف من الآخرين، وتكون هذه الشخصية أسيرة للوساوس والشكوك والقلق تجاه أي تصرف يصدر من الآخرين.

٨- لقد أكدت النصوص الإسلامية المباركة على موضوع حب الذات والأثانية، ونهت الإنسان من الاغترار بذاته والعجب بنفسه وتفضيلها على الآخرين، فإن في هذا السلوك المنحرف خفايا تُعبّر عن حالة نفسية مريضة.

٩- الشخص الأثاني تحكمه سلوكيات شاذة عن الطبيعة البشرية السوية، ويمكن إجمال هذه السلوكيات فيما يلي:

أ- التفرد بالرأي.

ب- الجشع المادي والدكتاتورية السياسية.

ج- الحسد.

د- غير المرأة غير الطبيعية.

١٠- التربية الإسلامية تربية هادفة تستمدُّ تعاليمها من الإسلام المجيد عقيدةً وتشريعاً وسلوكاً وإيماناً، وهذه التربية الإلهية المتكاملة يتمخض عنها سلوك إيماني يرتبط بالواقع العملي، فهذه التربية تُعلم الإنسان أن لا يقف عند حدود:-

﴿تُحِبُّ لِأَخِيكَ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ﴾^(١)

وإنما تتجاوز ذلك لتمتدَّ إلى سلوك إيثار الآخرين على النفس وتقديم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة.

١١- تُوجَدُ في مجتمعاتنا ممارسة خاطئة يمارسها بعض الأشخاص ضعيفو الإيمان والمروءة، هذه الممارسة الخاطئة تتجسّد في عمليات الاحتكار للسلع الأساسية، التي يحتاجها الناس لغرض رفع أسعار المواد، وبالتالي يتضاعف الربح عند الإنسان المُحتكر لتلك البضائع، وهذا السلوك يتنافى مع مبادئ الإسلام وقيمه وأخلاقه.

١٢- الاحتكار ممارسة ذميمة عانت منها أقوام الجزيرة العربية قبل الإسلام، ولما جاء الإسلام الحنيف ألغى تلك التعاملات المُجحفة بحق المجتمع، ووضع الضوابط الشرعية التي تحاسب الشخص المُحتكر، وبذلك حفظ الإسلام حالة التوازن المعيشي بين أبناء المجتمع، فمثلاً يكون ميسور الحال بإمكانه تأمين قوته كذلك يستطيع فقير الحال تأمين قوته أيضاً، وبذلك فقد حقّق القانون

(١) ميزان الحكمة/محمد الريشهري/ج١/ص٦٦٤.

الإسلامي حالة ضمان العيش الكريم لجميع فئات المجتمع على حد سواء.

١٣- لقد قدّم الإسلام المجيد للبشرية نموذجاً رائعاً من التشريعات التي تحمي المجتمع من أيّ تجاوز عليه على المستوى المادي والمعنوي، هذا النوع من التكافل والتضامن الاجتماعي جعل الفرد والمجتمع يعيشون بحالة عالية من الاستقرار والشعور بالأمان، الأمر الذي جعل المجتمع الإسلامي يتقدّم ويتطور بسرعة حتى قدّم للعالم حضارة جديدة من أهمّ مرتكزاتها احترام الإنسان وحفظ كرامته وحقوقه عن طريق العدل والمساواة.

١٤- من أجل إشاعة روح المحبة والتعاون بين أبناء المجتمع بمختلف مستوياتهم المادية والمعنوية، نهى الإسلام المجيد عن التحاسد والتباغض بين أبناء المجتمع حتى يكون المجتمع المسلم خالياً من العُقد النفسية التي تولّد حالات البغض والكراهية بين أبناء المجتمع، وقد وضع الإسلام الحنيف أُسس بناء الحياة على أساس المحبة والتضحية والإيثار وحبّ الآخرين والتعاون معهم.

١٥- المجتمع الواعي والناصح يكون مجتمعاً متعاوناً متماسكاً وكأنّه (بنيان مرصوص)، وهذا الوضع الاجتماعي المستقر يبقى صامداً أمام كلّ التحديات، ولكن هذا البناء الاجتماعي المتماسك بقوة، سرعان ما يبدأ بالضعف إذا ما تمكّن أصحاب

النميمة والنفاق من اختراق عناصر ذلك المجتمع، ولذا أكد القرآن الكريم والكثير من الأحاديث الشريفة على ضرورة التحري والتثبت والمكاشفة إذا ما حاول شخص أو جهة معينة بثّ سموم التفرقة والفتنة والنميمة بين عناصر ذلك المجتمع.

الفهرس

الصفحة	الموضوع
٥	مقدمة
١١	الفصل الأول
١٣	المبحث الأول
١٥	كيف نتعايش مع الآخرين؟...
١٦	محيط الأسرة
١٩	التعامل الصحيح مع أفراد الأسرة
١٩	١- كيف أتعامل مع والدي؟...
٢٧	٢- التفاهم وحل المشاكل الأسرية
٢٩	٣- العلاقة بالإخوة
٣٣	٤- النظام في الأسرة
٣٦	٥- علاقة الأسرة بالآخرين
٤١	المبحث الثاني
٤٣	وأحسن إلى من أساء إليك
٦٧	المبحث الثالث
٦٩	مبحث تفسيري
٨٢	النفقة
٨٣	كظم الغيظ
٨٣	العفو

٨٤	الإحسان
٨٧	بين طاووس والإمام
٩٩	المبحث الرابع
١٠١	مبحث في أحاديث المعصومين (عَلَيْهِمُ السَّلَامُ)
١٠١	بالعقل.. نعرف النفس
١٠٣	إفشاء السلام.. من صفات الكرام
١٠٤	استقامة مشروطة
١٠٨	مقياس الإيمان
١٠٩	١- الانتقال من الأنانية إلى العطاء:
١٠٩	٢- التضحية:
١١٠	٣- تنبيه الذهن:
١١١	٤- إبعاد الخوف والشك:
١١٣	للعادة.. وسائل مختلفة
١١٧	ثلاثة.. يدفعون العذاب
١٢٠	لِلْخَيْرِ.. وَجُودٌ
١٢٨	خلاصة الفصل الأول
١٤٥	الفصل الثاني
١٤٧	المبحث الأول
١٤٩	الْمُؤْمِنُ.. خَيْرٌ كُلُّهُ
١٥٤	لماذا.. الهدم والتخريب؟...
١٥٥	١- الجهل:
١٥٦	٢- غياب الإحساس بالمسؤولية:
١٥٧	٣- الأنانية:

١٥٩	المبحث الثاني
١٦١	من مظاهر الأنانية.. في حياة الإنسان
١٦١	أ- التفرد بالرأي:
١٦٤	ب- الجشع المادي والدكتاتورية السياسية:
١٦٧	الإسلام.. وحقوق المجتمع
١٦٩	ج- الحسد:
١٧٢	د- غيرة المرأة غير الطبيعية:
١٧٣	المبحث الثالث
١٧٥	محنة الإنسان.. تكمن في أزمة الأخلاق
١٧٥	النمام.. مخرب هدام:
١٧٧	الفرقة والنزاع.. هدم وتخريب:
١٧٩	يهدمون الأمجاد:
١٧٩	الكلمة الهدامة:
١٨١	المن.. يهدم المعروف:
١٨١	سوء القصد.. يهدم بناء الخير:
١٨٢	المنافع.. هدام:
١٨٣	التسقيط.. هدم وتخريب:
١٨٤	بائع المحرم.. هدام:
١٨٧	المبحث الرابع
١٨٩	مبحث تفسيري
٢٠٥	تنبيه مهم في قصة الإطعام
٢١٢	حرب الإشاعات
٢١٢	سبب نزول الآية:

٢١٦	الكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ
٢٣١	خلاصة الفصل الثاني
٢٣٧	الفهرس

سلسلة كتب ومؤلفات سماحة المرجع الديني
آية الله الفقيه السيّد حسين الصدر (دام ظلّه)، فيما
يخصُّ مفاهيم السلام والتعايش السّلمي والمواطنة
الصالحة في إطار العراق الواحد الموحّد.